سيرة عباد الشمس

سيرة عباد الشمس
أسامة الشاذلي

تصميم الغلاف:
اسم المصمم

المراجعة اللغوية:
محمد رشوان

إخراج فني
أحمد متاريك

الطبعة الأولى

رقم الإيداع:
ISBN: 978-977-6378--

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

سيرة عباد الشمس

أسامة الشاذلي

دار المصري للنشر والتوزيع

إهداء

إلى هذا المسكون بالإبداع والشجن، رفيق الروح الذي يحتمل مالا يحتمله أحد، إلى صديقي ورفيقي محمد الوزيري.. في انتظار مجموعته القصصية الأولى.

"المحل مغلق لوفاة صاحبه الأستاذ/ شكري أبو عيّاد العزاء في دار مناسبات مسجد الخلفاء الراشدين مساء السبت" يافطة علّقها مراهق على البوابة المعدنية لاستوديو تصوير "اضحك الصورة تطلع حلوة" في شارع سليم الأول بحي الزيتون، صباح يوم جمعة، حين بدأ العشرات من الملتحين ذوي الأردية البيضاء القصيرة في التوافد على مسجد "العزيز بالله" لسماع خطبة الجمعة من شيخهم "أبو دانيال الجويني". ألقى بعضهم نظرة عابسة على الورقة المعلّقة ولم يعرها التفاتًا وواصل التمتمة بتسبيحاته، بينما علّق الذين يظنون أنفسهم أكثر إيمانًا وقُدرة على الحكم قائلين:

– مصوّراتي في نار جهنم وبأس المصير.

ارتعد المراهق الصغير من ذكر الجحيم، فارتدت يده عن التأكد من تثبيت الورقة جيدًا بالـ«سوليتب»، وانصرف في اتجاه منزل أستاذه الراحل. لم تعش تلك الورقة طويلاً بعد صاحبها، أو بعد رحيل واضعها، حيث نزعها متحمّس نبتت لحيته بالكاد، وتوقف منذ شهور قليلة عن ممارسة العادة السرية، ومسح كل أفلام "البورنو" من على كومبيوتر المنزل، وأضاف بدلاً منها على "الهارد" ذاته العديد من تفاسير القرآن والتلاوات بصوت شيوخه المفضلين "محمد جبريل"، و"أحمد بن على العجمي". ومع طفولة الشتاء التي يمارسها بألاعيب رياحه بعيدًا عن شيخوخة الصيف وجديته الصارمة التي تقطعها بعض النسمات الخفيفة كابتسامات

مجاملة لزوم استمرار الحياة، تلاعبت رياح ذلك النهار الشتوي في منتصف ديسمبر بالورقة المنزوعة وأعادت لصقها مؤقتًا على شجرة "سنط" عريضة هي آخر ما تبقى من طابع حي الزيتون القديم حين كان مكانًا زراعيًا تنتقل إليه أسر القاهرة البرجوازية لقضاء عطلات نهاية الأسبوع. ولأن الأطفال لا يطمئنون لاستقرار شيء لعبوا به في مكان واحد أكثر من بضع ثوان، عادت الورقة لتحلق في السماء دون اتجاه معين، حتى أنها مرت دون قصد في طريق روح المصوّر الراحل التي بدأت رحلتها النهائية في التحرر من قيود الجسد وانطلقت في الفضاء حيث كانت. قرأ الأستاذ شكري ما كتبه "صبيه" حسن على الورقة، واكفهر قليلاً قبل أن ينطق بصوت لم يخرج من حنجرة وفم ولسان:

ـ عيل غبي، استرخص وكتبها عند الواد حمودة صاحبه بتاع السايبر بفونت زي الخرا، لا وكمان مثبتهاش كويس، والناس مش حتعرف وتيجي العزا، جحش صحيح.

ولأن الأرواح بمجرد مغادرة الجسد لا تشغل نفسها كثيرًا بأمورنا الدنيوية، اكتفى شكري أبوعيّاد بحكم العادة وكمصوّر قضى أكثر من خمسين عامًا بثلاثة عيون، اثنان مثل كل البشر وعدسة الكاميرا. تأمل المشهد من على ارتفاع، من منظور "عين الطائر" كما يقول المصوّرون، وشاهد الورقة تصافح وجه منتقبة ضربتها سريعًا لتبعدها وكأنها صورة عن التحرش جديرة بالفوز في إحدى مسابقات التصوير. استقرت الورقة على الأرض بجوار إحدى سجاجيد مُريدي الشيخ والذين أتوا بالـ "مترو"من كل فج عميق، بينما ذهبت روح الأستاذ شكري إلى حيث لا ندري. ومع انتهاء صلاة الجمعة، كانت ورقة العزاء المسكينة قد مارست

وظيفة لم تتقدم لها، في العمل كمنديل ورقي لملتح ريفي يبيع بعض التمور وألبان الإبل على عربة خشبية يدفعها بيديه، يأتي كل يوم جمعة لسماع خطب الشيخ، بحثًا عن ربحين، ربح الحسنات وربح المال. وبعد أن كورها وألقاها بعيدًا التفت لعجوز أصر على سعر أقل لكيلو التمر وهتف بعد أن انفتحت أنفه:

– بالله عليك يا شيخ ولا ربع جنيه، ده مجابش حقه.

وقبل أن ينصرف المصلون نادى شيخ الجامع على صلاة الجنازة فاصطفوا يكبرون التكبيرات الأربعة قبل أن تخرج الخشبة التي حملت جسد الأستاذ شكري أبو عيّاد في طريقها لسيارة نقل الموتى في رحلته الأخيرة إلى الأسكندرية حتى يدفن بجوار والده وأجداده.

لم يكن المساء قد حل فعليًا محل نهار الجمعة، إلا أن منزل الاستاذ شكري بشارع "حسن خليل" في حي الزيتون والذي يبعد عن ستوديو التصوير الذي يملكه عشر دقائق من المشي المريح لرجل رحل في سن الستين، قد أظلم فعلاً بعد أن امتلأت شقتهم حتى آخرها بجحافل من المعزيات اللاتي ارتدين السواد للعزاء. بينما جلس "أيمن" الابن الوحيد للفقيد بجوار بعض الجيران وأصحاب محلات المكواة والبقالة في الشارع على بعض المقاعد الخشبية في مدخل العمارة لاستقبال المعزين من الرجال، الذين كانت رحلتهم تنتهي بمجرد عبور البوابة الحديدة للمبنى السكني، بينما تكمل زوجاتهم الهرولة على درجات السلم للصعود لشقة الأستاذ شكري في الدور الثالث للقاء زوجة الفقيد. وعلى صوت جهاز تسجيل تبرع به أحد السكان بعد أن اكتشف الجميع أن أجهزة التسجيل التي يملكونها قد أضربت عن العمل بحكم البطالة وعدم الاستخدام منذ سنوات

عديدة بعد الاعتماد الكلي على الكومبيوتر والإنترنت. وعلى صوت الشيخ عبدالباسط عبدالصمد المسجل على شريط كاسيت اهترأ بفعل الزمن وأصابه التلف في أماكن عديدة، استمع جميع الجلوس في بير السلم لسورة "ق"، بينما اكتفى جار عجوز بالمرور على الحضور لتوزيع السجائر المحلية التي رفضها معظمهم وأشعلوا سجائرهم الخاصة، بينما أشعلها أيمن وهو يتساءل داخل نفسه في غضب عن اختيار هذا الجار ذاته لتلك السورة من القرآن عوضًا عن مائة وثلاثة عشر سورة أخرى، بينما كان صوت الشيخ يعلو في إحدى وصلات الشريط السليمة قائلاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ، لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ، وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. وقبل أن ينهض أيمن لإغلاق الكاسيت كان الصوت يتحول لأقصى سرعة ممكنة مع طبقة كارتونية لصوت القارىء بعد أن حُشر الشريط في "هيد" الكاسيت، ابتسم البعض بعد سماع الصوت بهذه الطريقة، بينما سقط أيمن على ركبتيه ضاحكًا بصوت عالي، أجبر كل الأصوات الأخرى على الصمت لحظيًا. وبعدما طال زمن الضحكة عن المقبول، بدأ المعزون في النميمة ومصمصة الشفاة حول هذا الإبن العاق، الذي لم يكفيه هجرانه لبيت أبيه منذ أكثر من عشر سنوات، بل ويضحك سعيدًا يوم وفاته. بعض رحماء القلوب كانوا أكثر رحمة حين اعتبروا هذه الضحكة "الشيطانية"

حسبما رأوها هي جزء من صدمة الابن من رحيل الأب غاضبًا عليه. لكن أيمن لم يتوقف عن الضحك، مما اضطر المعزون لاستخدام هواتفهم المحمولة واستدعاء زوجاتهم من أعلى لمغادرة المكان، بينما حاول بعض المقربين سحب الضاحك بعيدًا عن بير السلم لكنهم فشلوا فاضطروا للصعود إلى والدته لعلها تجد حلاً. وقبل أن يعودوا بها إليه كان الشاب حسن، صبي ستوديو التصوير قد عاد من الخارج مخاطبًا ابن رب عمله الذي ما زال يضحك جالسًا على ركبتيه:

– أنا علّقت ورقة تانية يا أستاذ أيمن بدل اللي ضاعت.

توقف أيمن عن الضحك فجأة كما بدأه فجأة وتأمل الصبي جيدًا للمرة الأولى في حياته وقبل أن يرد، أكمل الفتى حديثه:

– الواد حمودة صاحب السايبر اللي جنبنا، قاللي الورقة ضاعت علشان مكتبناش فيها " إنا لله وإنا لله راجعون".

نهض أيمن معتمدًا على كتفي الصبي الذي يحادثه، وضع يده على كتفه ليسحبه خارج "بير السلم" ويغادرا الشارع بأكمله.

وبوصول الأم بصعوبة لبير السلم بصحبة الأقارب الغاضبين، لم يكن هناك سوى مقاعد خشبية صامتة وجهاز "كاسيت" صامت أيضًا وقطة جالسة في صمت وسكون كأنها في عزاء.

"أيمن مشي؟!"

وقبل أن يرد عليها أحد استدارت أم أيمن لتعود إلى أريكتها المفضلة في شقتها بالدور الثالث لتواصل البكاء مع الرفيقات وكأن شيئًا لم يكن.

* * *

خيَّم الظلام على ذلك البار الضيق في تقاطع شارع هدى شعراوي مع شارع طلعت حرب، واقترب الساقي من منضدة جلس عليها أيمن وحسن وحدهما، رمى حسن بنظرة غاضبة تنم على أن سنه لا يسمح له بتناول البيرة في مكان عام، وأن هذا يخالف القانون، بينما كان حسن في دنيا أخرى عقب ثالث زجاجة بيرة يشربها في حياته. استوعب أيمن نظرة الساقي فوضع عشرة جنيهات في جيبه قائلاً:

– مساء الفل ياعم داوود.

ابتسم الرجل بفعل السعادة التي يبثَّها المال في الأرواح الوضيعة ووضع زجاجتين «مايستر ماكس» وقال قبل أن ينصرف:

– والله الحكومة يا أيمن باشا، إحنا عينينا ليك.

أكمل أيمن حواره مع الصبي متجاهلاً وجود الساقي تمامًا:

– وأنا قدك يا حسن كان أبويا نفسه يعلمني التصوير، كان بينزلني معاه يوميًا في الاستوديو وكمان في الأفراح لما الحال يبقى ماشي.

– الله يرحمه كان بيزعقلي لما أقرب من الكاميرا، وكان بياخدني في الأفراح علشان أتعشى وميحاسبنيش على اليوم. ارتفعت ضحكة أيمن لتقطع ضجيج المكان للحظات، التفت إليه الحضورمتسائلين عن سبب سعادته، غير أن سُحُب الكحول مالبثت أن أعادتهم إلى أنفسهم في لحظات سبقت انتهاء الضحكة

– شكري أبو عيّاد كان بخيل أنا عارف.

مع أول رشفة من الزجاجة الجديدة لم يتمكن حسن صاحب الستة عشر عامًا من سماع أيمن، كان يرى علامة «ستلا» المعلّقة على الحائط أمامه وقد اتخذت شكل وحشًا أسطوريًا من وحوش «الباور رينجرز»

والذي يرغب في أن يغزو العالم، ذكره هذا بـ«إيملي» فتاة أحلامه صاحبة الشعر الأصفر التي أدمنت زيارته في الأحلام، والتي يستدعيها لممارسة العادة السرية في حمام الاستوديو أو المنزل كلما اضطرته الحاجة. وقبل أن تحتل «إيملي» فراغ حسن الناتج بفعل الكُحول، تستدعيه معدته التي لم تعتد هذا المشروب الجديد ليفرغ كل ما في بطنه على المنضدة وعلى ملابس أيمن قبل أن يدرك ما يفعل. حل الصمت واتجهت كل الأنظار لتلك المنضدة التي لم يميزها بعد هذا التقيؤ سوى ضحكة أيمن التي لم تتوقف لحظة، وبرطمة داوود ساقي البار الذي طالبهم بمغادرة المكان حالاً. وخلال دقائق معدودة كان الثنائي الغريب شكلاً وموضوعًا يسيران في شارع طلعت حرب بعدما ابتلت ملابسهما بالمياه التي أزالت أثر القيء بينما بقيت رائحته عنيدة لا تغيب. استنشق أيمن نفسًا عميقًا وأشار إلى حسن ليُقلّده، ثم تابع المسير وخلفه المراهق الذي لعب الكحل برأسه حتى أن روح شكري أبو عيّاد حضرت إليه من جديد:

– كده يا وسخ بتسكر يوم وفاتي بدل ما تعيط.

وقبل أن يرد حسن الذي بُهِتَ وتوقف ولم يلحظه أيمن وواصل السير، أكمل شكري:

– إيه اللي لمَّك على العيل النجس ده، ودِيني لأوريك.

عجز حسن عن منع نفسه من الضحك، وأشاح بيده كمن يطرد صورة الشبح، ثم جرى ليلحق برفيقه الذي يتعرف عليه للمرة الأولى قائلاً:

– أبوك بيقولّي ممشيش معاك.

أجاب أيمن دون أن يلتفت للمتحدث:

– أنا لو منك أسمع كلامه، هو صحيح عمره لا قال ولا عمل حاجة صح، بس تلاقيه بعد ما مات بقى بيفهم.

وقبل أن يرد المراهق المخمور، أوقف أيمن «تاكسي» قائلاً:

– الزيتون، والنبي وصل الأخ وخد دول.

أعطى السائق عشرون جنيهًا وساعد حسن على الركوب ثم سحب نفسًا عميقًا كمن تخلص من حمل ثقيل، ثم أخرج هاتفه المحمول وطلب آخِر رقم اتصل به قائلاً:

– جين، عايز أشوفك حالاً.

– لا مفيش حاجة اسمها مينفعش، أنا جايلك دلوقتي.

ثم أغلق الخط، وأغلق الهاتف نفسه ليمنع أي محاولات للإتصال واتجه إلى سيارته ليقودها في اتجاه المهندسين، حيث تسكن جيهان التي يناديها «جين» في شارع «شهاب».

* * *

لم يهتم أيمن كثيرًا باستقبال جين الفاتر، تركها جالسة أمام شاشة التليفزيون واتجه مباشرة دون أي كلمة إلى غرفة النوم، سحب زجاجة الفودكا من رف في مكتبة صغيرة معلّقة فوق الفراش وارتشف القليل قبل أن يخلع ملابسه ليبقى بالـ«بوكسر» فقط. عاد إلى جين التي اتخذت وضعًا جنينيًا على الأريكة وهي تشاهد فيلمًا لأحمد حلمي على إحدى الفضائيات، ألقى بجسده دون أن ينتظر أن تُفسح له مكانًا، فارتفع صراخها متألمة، لكنه انتهز الفرصة ليلتقط

الريموت كونترول بحثًا عن فيلم أمريكي وعلى وجهه ابتسامة ساخرة نهضت غاضبة:

– إيه اللي أنت بتعمله ده، أنا مش نقصاك!

– أنا ابويا مات يا جين.

ألجمت الجملة الفتاة وحل الصمت لحظة قبل أن يميل أيمن إلى اليسار قليلاً ليتمكن من استخدام الريموت، اندهشت جين وألقت نظرة على الفيلم الذي أستقر عليه، قبل أن تتجه للمطبخ لإحضار كوبين زجاجيين. وأمام الشاشة التي كانت تعرض فيلمًا عن الحرب العالمية الأولى وفتاة تبحث عن خطيبها الذي أبلغوها رسميًا بوفاته ولكنها متأكدة من بقائه على قيد الحياة، شرب الإثنان نصف الزجاجة قبل أن ينهار أيمن في البكاء بين أحضان جين التي تابعت الفيلم وهي تربت على ظهره في آلية أجهزة «المساج» الحديثة، وعند أول فاصل إعلاني تساءلت:

– أنت بتعيط ليه، انت عمرك ما حبيته؟!

توقف أيمن عن البكاء ورفع رأسه ليلقي نظرة على صديقته التي ارتمى في أحضانها متأملاً من أسفل تلك النغزة في منتصف ذقنها والتي شكلت مع وجهها الدائري أحد أهم ملامح جمالها، بالإضافة إلى أنفها الصغير الذي يبدو كأنه أدرك في اللحظة الأخيرة قبل ولادتها حاجته للوجود، أسفل زوج من العيون الخضراء التي صاحبها جبين ناصع كبقية بشرتها وشعر أشقر متناثر في إهمال يجعل صاحبته دائماً تعامل وكأنها شابة أوروبية تعيش في مصر.

– صدقيني معرفش أنا بعيط ليه؟

– قوم نام يا أيمن.

وقبل أن يجيب كانت قد عادت لتركز كلية في الفيلم الذي عاد بعد انتهاء الفقرة الإعلانية، أدرك أنه لا جدوى من الحديث فانسحب إلى غرفة النوم، وعند باب الغرفة توقف قليلاً ثم قال:

- تصبحي على خير.

لكن جين التي كانت تعود بالريموت كونترول إلى فيلم أحمد حلمي مرة أخرى بنفس التركيز لم ترد، هز رأسه وأغلق الباب خلفه وفتح زر النور ليجد نفسه أمام المرآة، تأمل جسده العريض وذلك الكرش المتكور على بطنه، قبل أن يقترب من المرأة ليعيد عد الشعيرات البيضاء في لحيته القصيرة. فك الأستك الذي يربط به شعره الأسود الناعم على هيئة ذيل حصان، ثم أخرج العدسات من عينيه اللتان احمرتا بفعل البكاء، أدهشه إحساسه بالسن فجأة، شعر بأن تلك التجاعيد الخفيفة حول عينيه البنيتين الضيقتين صارت أكثر عمقًا، كما أن ذلك الجرح القديم في أنفه الصغير قد بدا أوضح من ذي قبل، ابتسم معجبًا بوسامته وجلس على الفراش استعدادًا للنوم. وقبل أن يرفع قدميه من على الأرض تعلّق بنطاله بأحد قدميه فالتقطه ليرمي به على مقعد «التسريحة» سقطت منه على الأرض صورة فوتوغرافية. تعجب أيمن لوجودها في جيبه، التقطها من على الأرض وحدق فيها مندهشًا، ليجدها تجمع أباه وأمه ورجل غريب لا يعرفه وطفل صغير يجلس على رجل هذا الرجل وخلفهما يبدو حمام سباحة أحد النوادي. قلب أيمن الصورة على ظهرها لعله يجد أي عبارة مدونة عليها فلم يجد، تساءل عن مصدر الصورة، وكيف دخلت جيبه بحجمها ٩ x ١٥ سم. تمدد على الفراش ليعيد التركيز في الصورة التي تبدو من ألوانها الباهتة وزي أصحابها وكأنها التقطت في ثمانينات القرن الماضي.

* * *

في الصباح عندما فتح عينيه على صوت جين تطالبه بالاستيقاظ لأنها ستغادر المنزل لقضاء بعض المشاوير، قفز أيمن من الفراش ليودعها ويعدها بمغادرة المنزل قبل وصول المرأة التي تقوم بتنظيفه أسبوعيًا، وبعد أن أخذ حمامه وأثناء ارتداء ملابسه تذكر الصورة، فبحث عنها على الفراش وأسفله طيلة ساعة كاملة فيلم يجدها. اضطر لمغادرة الشقة قبل وصول المرأة محاولاً نسيان الصورة، وعندما فتح تابلوه سيارته ليضع بعض "البرفان" سقطت صورة فوتوغرافية منه، التقطها ليجدها نفس الصورة، تأمل الرجل الغريب جيدًا ثم تذكر أنه عمه "عيد".

امتدت شفته السفلى تعبيرًا عن عدم الفهم، تأمل الطريق المزدحم بالبشر في ذلك التوقيت من النهار في المهندسين، تساءل مرة أخرى عن مصدر الصورة، ثم قرر ألا يهتم، لعله "حسن" وقد لعبت الخمر برأسه أمس وأراد مداعبته.

نظر في ساعته ووجدها تشير إلى الواحدة ظهرًا، تذكر موعد العزاء في السادسة قبل وصول المعزين، قرر أن يعود إلى شقته ليرتدي "بدلة" مناسبة للعزاء على أن يسأل الصبي عن تلك الصور التي تركها في سيارته.

ركن أيمن سيارته أمام مدخل العمارة التي يقطنها مباشرة، وغادرها مصطحبًا غداءه الذي اشتراه من أحد المطاعم في الطريق وأمام الأسانسير عجز على أن يمنع سبة فلتت منه عندما اكتشف انقطاع الكهرباء.

ألقى نظرة غير ذات معنى على الأحد عشر دورًا الذي عليه أن يصعدهم حتى يصل لتلك الشقة الصغيرة على سطح تلك البناية في شارع سعد زغلول في وسط البلد.

فكر أن يعود مرة أخرى لشقة جين، لكنه تذكر عاملة التنظيف وبدلة العزاء، قرصه الجوع فتمردت معدته فهز الحقيبة البلاستيكية التي تحوي الطعام وكأنه يتأكد من وجوده.

غادر مدخل العمارة للجلوس على مقهى قريب للغداء وشرب الشاي انتظارًا لعودة الكهرباء وعمل المصعد المعطل.

استقبله عامل المقهى بترحاب مشابه للسكر الذي يضيفه لكل أكواب الشاي دون تمييز، عليك أن تُعلِمه أنك تشرب الشاي بدون سكر إذا رغبت في هذا، وإلا ستحصل على نصيبك ذاته الذي يناله كل زبون، سحب مقعدا مشيرًا لأيمن على المنضدة التي سيجلس عليها، ثم هرع إلى "الكولدير" ليعود بكوب من المياه الباردة بعد أن لمح حقيبة الطعام في يد أيمن الذي بدأ في تجهيز غدائه على المنضدة وشكر الساقي بهزة بسيطة من رأسه، لكنه لم ينصرف وبنفس الابتسامة التي استقبله بها سأله قائلاً:

ـ نشكر النور اللي قطع وجابك يا أستاذ أيمن، هو إيه الأخبار؟

نزع أيمن غطاء السلطة واستخدم الملعقة البلاستيكية في استخراج الطماطم التي لم يحبها أبدًا ووضعها على ورقة ألمونيوم كانت تغلف الكفتة الساخنة، ثم نظر للساقي في غيظ:

ـ أخبار إيه يا سيد؟

ـ أخبار السياحة يا برنس!

ابتسم أيمن في حسرة ومد يده ليلتهم إصبع كفتة وأعقبه برشفة من كوب ماء السلطة المليء بالشطة قبل أن يتجشأ ثم يقول:

ـ هو ده حال السياحة يا سيد، متقلبش عليا المواجع والنبي ده الواحد لو كان اشتغل مرشد للبوليس بدل مرشد سياحي كانت الدنيا

ظبطت معاه أكتر.

ابتعد سيد تاركًا أيمن لغداءه الذي انهمك فيه ناسيًا كل ماحوله، ليجد جاره محمود قادمًا هو الآخر إلى المقهى، اقترب منه وقبل أن ينهض للسلام عليه أجلسه محمود بضغطة برفق على كتفيه وهو يقول:

ـ لا سلام على طعام، إيه قاعد على القهوة ليه؟

ابتلع أيمن اللقمة التي في فمه وأجاب:

ـ النور قاطع ياعم ومش حعرف أطلع.

ابتسم محمود وقال:

ـ طيب حلو أنا كنت رايح أشتري بيبسي وشفتك، تعالي نضرب كاسين سوا، تحبس بيهم معايا ازازة دوبل بلاك يامعلم.

توقف أيمن عن التهام غداءه وابتسم ثم نادي على سيد وهو يقول لمحمود:

ـ أبويا مات امبارح، وأنا فعلا محتاج أشرب علشان أنسى العزا.

ومابين خجل محمود ومحاولته عزاء أيمن الذي لملم بقايا طعامه وأعطاها لصبي المقهى وهو يدفع الحساب، انطلق الصديقان لشقة محمود التي تقع في الدور الأرضي لنفس البناية التي يسكن فيها أيمن بعد شراء زجاجة مياه غازية مثلجة.

* * *

لا تصنع الخمر البهجة بل تدفعك إلى أعلى نقطة فيها، وكذلك مع الحزن تسحبك إلى أبعد نقطة في قاعه، هذا ما بدأ أيمن يشعر به بعد الكأس الثالثة، توقف عن خلط الويسكي بالبيبسي وبدأ يشربه بجرعات

صغيرة وسريعة، وبعد ساعتين قضاها وصديقه في مشاهدة أحد الأفلام الأجنبية المترجمة على «لاب توب» محمود لم يلحظا عودة الكهرباء للمبنى.

ارتخى جسديهما على الأريكة الكبيرة، تثاءب محمود وهو يرشف من كأسه، بينما غاب أيمن في النوم تمامًا.

نهض محمود وأطفأ النور متجهًا إلى غرفته بعدما قام بتشغيل المروحة لصديقه حتى لا يشعر بالحر، ثم غاص داخل فراشه خلال ثواني قليلة.

وفي العزاء حين بدأ المعزون التوافد على قاعة المناسبات في مسجد الخلفاء الراشدين، تأمل حسن اللوحة الورقية التي خط عليها الخطاط بيده وبخط منمق "عزاء الأستاذ شكري أبوعيّاد"، تذكر ورقة الأمس وعتاب المرحوم له فابتسم وأخفى ابتسامته، أجرى محاولته العاشرة في الاتصال بأيمن لكنه لم يرد عليه، وبعد نصف ساعة كان تليفونه قد أُغلق وسمع صوت الرسالة المسجلة.

استقبل حسن وحده المعزين مع بعض الجيران والأصدقاء المقربين الذي لا يعرف اسمهم، وقبل نهاية الربع الأخير تلقّى اتصالاً من زوجة المرحوم تسأله فيه عن ولدها الغائب:

- مجاش ياحاجة.
- حاولت اكلمه ومبيردش وبعدين تليفونه اتقفل.
- بس العزا تمام وملیان والناس كلها هنا.
- ورحمة المرحوم ما تزعلي.

أغلق الخط متجاهلاً غضبها الواضح في إغلاق المكالمة في وجهه، هز كتفيه في عدم اكتراث ومد يده ليسلم على أحد المعزين الذين وصلوا قائلاً: الدوام لله وحده.

* * *

استيقظ أيمن مذعورًا من حلم كان فيه بصحبة والده، أصر فيه على أن يمسك بالكاميرا ويلتقط بعض الصور لفرح في إحدى دور القوات المسلحة، التهبت الكاميرا بين يديه حتى سقطت بعد أن حرقتها، وعند ارتطامها بالأرض تحولت إلى وحوش تشبه والده، طاردته ساخطة غاضبة حتى استيقظ.

فوجيء بالظلام الشامل حوله، أجبره العطش على ارتشاف أقرب كوب له قبل أن يمتعض لأنه كأسًا من الويسكي، بدأ عقله في تجميع الصورة رويدًا رويدًا، قفز من مكانه صارخًا:

ـ أحا..العزا.

أضاء النور ونظر في ساعته وجدها تشير إلى الثالثة، بحث عن هاتفه المحمول فوجده مغلقًا، بحث عن شاحن في صالة منزل صديقه حتى وجد واحدًا ، أوصله إلى الكهرباء وفتح تليفونه ليجد مكالمات حسن الفائتة ورسالة غاضبة من والدته كان نصها «اللي خلف مامتش إلا أبوك».

عاد مرة أخرى إلى زجاجة الويسكي التي قاربت على النهاية تجرع كأسًا كبيرًا محاولاً كبت غضبه من الموقف الذي وضع نفسه فيه.

قام ليلقى نظرة على محمود النائم في فراشه، ثم قرر الرحيل وعندما هم بالتقاط تليفونه من على منضدة بالقرب من باب المنزل وجد صورة لوالده، يقف فيها بجوار والدته وخلفهما تمثال "لاظوغلي".

توقف الزمن، تلفت حوله دون مبرر وكأنه يبحث عمن وضع الصورة، داهمه الخوف فجأة ومرت بجسده قشعريرة، أشعل سيجارة ووضع الصورة في جيبه وانطلق صاعدًا إلى شقته وفي رأسه سؤال يتردد:

ـ مين اللي بيحط الصور دي وازاي حطها، أنا حطيت الموبايل ع الشاحن من ربع ساعة مكنش في حاجة؟

* * *

أحصت روح شكري أبوعيّاد المعزين بدار مناسبات مسجد الخليفة المؤمن بشارع المعهد الاشتراكي في مصر الجديدة، وانصرفت سعيدة وكأنها مبتسمة بعد حرص الأصدقاء والمعارف وحتى الزبائن على الحضور للمشاركة في عزاءه وفاءًا له.

فقط غاب ولده أيمن، وكأنه بهذا الغياب لا يخيب ظن الأب فيه، خاصة بعد نوبة الضحك التي دخل فيها بعد الدفن مساء الأمس، وكأن الله يعاقبه على عدم التزامه دينيًا بولد عاق، لا يهتم حتى بأخذ عزاءه.

أصابه هذا بنوع من الضيق لم يدرِ كيف تسلل إليه وهو مجرد روح تستعد لمغادرة هذا العالم.

وعندما مرت به كلمة «مغادرة العالم» تذكر محبوبته، تلك التي رافقته عُمرًا بأكمله وصارت قطعة من روحه، تعجب من غيابها عنه في رحيله.

اتجه فورًا إلى مقر ستوديو التصوير الخاص به، تأمل يافطته وكأنها المرة الأخيرة، تلك الحروف العربية البارزة لكلمة «اضحك الصورة تطلع حلوة» والتي أصر على أن يكون كل حرف منها بلون مختلف، الحروف المتحركة الألف والواو كلها باللون الأبيض، بينما انتحلت الحروف الثابتة الثمانية بدءًا من الضاد وصولاً للتاء المربوطة ألوان الطيف السبعة وحصل الثامن على اللون الأبيض.

بينما لأعلى قليلاً وفي منتصف اللوحة برزت الحروف اللاتينية لكلمة

«STUDIO» باللون النحاسي اللامع، والتي أعجزت الزمن عن طمسها مع حرصه الشديد على تلميعها بمادة «البراسوا» أسبوعيًا بمعرفة صبيه حسن والسلم الخشبي الذي يستعيره من جاره المعلم خريشة صاحب محل القماش.

أزعجت روح المرحوم عدم قدرته على رفع الباب الحديدي لمشاهدة واجهة الاستوديو الزجاجية التي تزينها مجموعة من صور الفنانين على شكل حرف S، الحرف الأول من اسمه، وفي أعلاهم صورة فنانه المفضل عبدالمنعم مدبولي وصولاً إلى صورة الفنانة سهير البابلي مرورا بعادل إمام وسعيد صالح ومحمد نجم.

وكذلك صور زفاف مميزة التقطها داخل الاستوديو وكوّن بها مربعًا محيطًا بالحرف اللاتيني الذي احتل الواجهة الزجاجية للمحل بالكامل.

اكتمال المشهد في مخيلته أعاد إليه الاطمئنان وأنساه غضبه على عدم قدرته على رفع الباب الحديدي، وخلال ثوان معدودة كان بجوار كاميرته «مينولتا» موديل عام ١٩٧٣، أول كاميرا اشتراها ليعمل مستقلاً بالتصوير حين بلغ عمره السابعة والعشرين، بعد أكثر من سبع سنوات من العمل مساعدًا لأستاذه نادي ممتاز.

تأمل شكري الكاميرا في سعادة وانبهار طفل اصطحبه والده إلى دار العرض السينمائي للمرة الأولى في حياته، شعر وكأنه يتحسس ذلك الغلاف الجلدي الأسود المحبب الذي يحيط بخاصرتها والذي كان دائمًا ما يعتبرها فستانها الأنيق، وكذلك الإطار المعدني الأسود الذي يحمل في أعلاه وفي المنتصف فوق العدسة تمامًا حفرًا لكلمة «Leica CL»، بينما كانت العدسة بلونها الأسود وأرقامها البيضاء وكأنها تلقي نظرة وداع على صاحبها الراحل.

* * *

طيلة أسبوع كامل لم يخرج فيه أيمن للعمل سوى في رحلة إلى المتحف وخان الخليلي، وجد خلالها في كل صباح صورة لوالده ووالدته عند تمثالي «لاظوغلي»، و«إبراهيم باشا».

بات ليلة كاملة مختفيًا داخل دولاب غرفة نومه مستيقظًا حتى يعرف كيف تصل إليه الصور، إلا أنه عندما سقط فجرًا بعد أن انفتح الدولاب نتيجة وزنه بعدما ألقى به النوم رغما عنه وجد الصورة أسفل الفراش بجوار رأسه تمامًا الذي ارتطم بالبلاط.

حتى تلك الكاميرا التي وضعها لتصور غرفته ٢٤ ساعة لم تصنع فارقًا سوى أنه وجد الصورة في صالة المنزل، وعندما وضع أخرى في الصالة كانت الصورة في الحمام.

قضى ليلة كاملة في نهاية الاسبوع يسمع موسيقى «فاجنر» وهو يصرخ بكل الشتائم التي تعلمها رافعًا صوته حتى لا ينام، مناديًا ذلك الغامض الذي يضع الصور متوعدًا إياه.

وفي الصباح عندما صمت «فاجنر» بعد أكثر من ٦ ساعات من الغناء على شاشة اللاب توب، وانتهت ثامن زجاجة بيرة شربها أيمن في تلك الليلة، وذهب صوته نهائيًّا عقب الصراخ لساعات طويلة، كانت الصورة ترقد على «كيبورد» اللاب توب نفسه الذي كانت موسيقى «فاجنر» تخرج من خلالها.

أمسك الصورة وصرخ بشدة قبل أن يسقط نائما بعدما استنفد طاقته نهائيًّا.

وعندما استيقظ عصرًا جلس وأمامه ورقة طرح فيها كل من يعتقد أنهم يبعثون له هذه الصور، لكنه في النهاية عجز عن إثبات كيفية وصول

أحدهم إلى غرفته دون أن يراه، أمسك برأسه وهمس في يأس:

ـ شكري أبو عيّاد عايز يجنني ميت بعد ما طفشني حي.

إلا أنه أعاد ترتيب الصور دون وعي ثم صرخ مُقلدًا «أرشميدس»:

ـ وجدتها.

وفي الليل كان قد اتخذ قراره بالذهاب إلى والدته حاملاً كل الصور، التي وصلته خلال هذا الأسبوع.

* * *

استقبلته استقبالاً فاترًا للغاية، تركته على باب الشقة وعادت إلى أريكتها المفضلة، اجتاز عتبة الباب متجاهلاً رائحة البيت الخاصة الذي ملأت أنفاسه، والذي شعر تجاهها بامتنان عجيب.

انحنى وجلس أمامها وقبل يديها رغم أنها سحبتها بسرعة وأدرات وجهها بعيدًا عنه

قال مستعطفًا إياها:

ـ كده يانور حتفضلي مخاصمة ميمون الشقي كتير؟

ـ لم تبتسم الأم كما كانت تبتسم كلما سمعت كلمة «ميمون»، فقط ردت في غضب:

ـ متحضرش العزا بتاع أبوك يا أيمن، هان عليك ميت وحي.

اندفع يروي لها كل ما مر به منذ يوم العزاء وحتى جاء إليها وأخرج من جيبه مظروفًا أخرج منه الصور ونثرها على الأريكة بجوارها، إلا أنها لم تندهش تمامًا ولم تلقي أي نظرة على الصور وقالت:

ـ وانت شارب إيه قبل ما تجيلي؟

انكبَّ أيمن على يدي أمه يقبلها، وهو يقول بجدية:

ـ والله يا أمي ما شارب، أبويا حيجنني أنا راقبت البيت بالكاميرات علشان اشوف مين بيحط الصور وملقتش حد، ومش بلاقي صور غير ليكي وليه، وساعات ليا معاكو، عايز افهم.

أشاحت «نورسين» بوجهها مرة اخرى وقالت:

ـ عمرك ما فهمت حاجة.

نهض أيمن من جلسته على الأرض في مواجهة والدته ورمى بجسده على مقعد قريب وهو يقول في غضب:

ـ آه زي بالظبط ما انت فهمتيني لما قولتلك وأنا عندي عشر سنين إني شفته نايم مع مدام جوزفين جارتنا اللي جوزها مات.

صرخت الأم في غضب رافعة يدها مشهرة إصبعها:

ـ اخرس يا ولد، انت مش فاهم حاجة خالص، أنت غبي.

ثم بكت بشدة، فنهض أيمن ليحتضنها وهو يعتذر:

ـ أنا آسف يا ماما، ارجوكي بلاش بكا.

وعلى الفراش في غرفة النوم عدل أيمن وضع الوسادة تحت رأس والدته التي ذهبت في النوم وجلس بجوارها يتأملها وهو يربت على كتفها حتى انتظمت أنفاسها تمامًا.

غادر الغرفة متجولاً في البيت، ملتقطًا من كل زاوية ذكرى من ذكرياته مع والده، مما أجبره على العودة مرة أخرى لوالدته النائمة ليغفو بجوارها بكامل ملابسه حتى الصباح. أمام إفطار لم يتناوله منذ سنوات جلس أيمن يستمع وللمرة الأولى

لوالدته التي استيقظ ليجدها محتضنة صوره التي نثرها على الأريكة وهي تتأمل كلا منها في سعادة وشوق كبيرين.

* * *

طهران – تبريز (سبعينيات)

لم تعلم حين اقتادوها من دارها ليلاً لماذا تذكرت ذلك المشهد الذي كون فيه البشر أمواجًا متلاطمة تدفقوا من كل فج عميق لاستقبال الإمام الخوميني، حين ظنت أن طهران يومها تلبس حلة زاهية، وتتسربل بشعارات الثورة وتتنفس هواءًا جديدًا بعد رحيل الشاه.

وداخل برودة زنزانة مظلمة في إحدى ضواحي المدينة النائمة عادت ذاكرتها رغمًا عن الألم الذي سكن كل عضلة من عضلات جسدها جراء السحل والركل إلى ذلك اليوم الذي خرجت فيه وهي لم تتجاوز ١٨ عاما في الذكرى الأربعين لوفاة ٧٠ طالبا في مدينة قُم على يد «السافاك» متظاهرة ضد نظام الشاه في مدينتها «تبريز».

وعلى الرغم من ذلك الصمت الذي تعتنقه الزنازين في بداية تعارفها على من سكن جوفها، تذكرت تلك الهتافات البريئة التي خرجت تندد بالعنف وتهاجم النظام الفاسد وتنادي بالحرية، تلك الضجة التي تحدثها مظاهرة غير منظمة خرجت تهدر في شارع تعود الخضوع حتى أنه ارتج تحت أقدام الغاضبين.

قطع حبل أفكارها صرخة سجين لا تعرفه، إنسان يتألم في مكان ما قريب، تردد الزنازين صرخته بفرحة متشفية مخيفة، عادت إلى ذكرياتها هربًا من خوفها، تذكرت يوم ميلادها في العاشر من مايو حين حلت الفوضى في المدينة الكبيرة وهوجمت الفنادق ودور السينما والبنوك

وحتى مدارس الفتيات، يومها بدلاً من أن تتلقى هدية بلوغها العام الثامن عشر وجدت نفسها محشورة داخل سيارة بصحبة والديها وشقيقيها في اتجاه طهران.

قرر الأب دون أي استشارات مغادرة «تبريز» كان يؤكد خلال الرحلة التي يبلغ طولها ستمائة وتسعة عشر كيلومتر أن الشاه باقٍ لا محالة، وأن المخابرات الإيرانية ستأتي برأس الخوميني ووكذلك مهدي باذرخان ومحمد كاظم الشريعتمداري، وكل رموز المعارضة من الليبراليين والعلمانيين والشيوعيين.

لم تسمعه «نورسين» فقط اكتفت بتأمل أشجار السرو التي تعانق مزارع الكروم على بدايات الطريق، وقد بدأت عناقيد العنب في النضج تاركة بصمتها على الهواء الذي يتسلل خلسة من شباك السيارة حاملاً رائحة المدينة القديمة وضواحيها.

انتبهت «نورسين» حين صرخ فيها الوالد محذرًا:

ـ كفاكي مراهقة، واحتكاك بالشيوعين، أنا أغادر تلك المدينة حفاظًا عليكي وعلى أخيكي الأحمق ناجي، واهتماماتكما التي ستودي بحياة الأسرة بالكامل.

تبرم ناجي بجوارها في السيارة ومال بجذعه الطويل إلى الأمام محاولاً الاقتراب من مقعد أبيه الذي يقود السيارة ليدافع عن نفسه، خاصة وأنه يرى وضعه مع أخته الصغرى في جملة واحدة تشمل اتهامًا واحدًا؛ أمرًا مشينًا.

حركت «نورسين» المزلاج الذي يتحكم في زجاج شباك السيارة لتسمح بكمية أكبر من الهواء بالدخول، لتملأ رئتيها بهواء مدينتها،

متآمرة كذلك مع الهواء ليطيح بصوت ذلك الجدل الدائر بين أبيها وأخاها الأكبر الذي يكبرها بسبع سنوات.

عجزت عيناها عن كبت دمعها الذي سال بطيئا تمامًا كمياه نهر «مهران» التي بدأ الصيف يصيبه بالجفاف كما اعتاد كل عام، وخلال عبورها على الجسر القديم الي يمر فوق النهر الذي يقسم شمالي المدينة عن جنوبها وخلعت فردة الحلق من أذنها اليمنى وألقت به داخل المجرى الذي أوشك على الجفاف.

التفتت والدتها التي جلست صامتة منذ بداية الرحلة على المقعد المجاور للسائق على أثر حركة القذف التي رجت مقعدها، لمحت «نورسين» تلك الدموع التي ملأت عين الأم والتي عجزت نظرة الغضب عن إخفائها، هزت رأسها يمينًا ويسارًا مستخدمًا كفها لمسح الدموع دون أن تغادر عيناها عين الأم التي عادت ونظرت للأمام مرة أخرى بينما كان الأب يتحدث بفخر عن السيارة لولده الأوسط والمفضل مهدي والذي جلس خلفه مباشرة قائلاً:

ـ ياولدي إنها الكابريس كلاسيك موديل ٦٩، ذلك الموتور الذي يحسده الهواء.

* * *

لم يستغرق التحقيق أكثر من ربع ساعة سألها الضابط الملتحي في عجالة وهو لا ينتظر إجابات، تمامًا مثل ماكينة الحساب في الاسواق الكبيرة، تخبرك بما عليك وليس أمامك سوى أن تدفع.

لم تفعل شيئًا سوى الصمت، ومع أول ضربة بكرباج صغير كان الصراخ بديلاً لا مناص منه، وداخل زنزانة مغمورة بالماء كان الاستقرار،

تعجبت من برودة الجو في ذلك التوقيت من العام، تحسست الجدران، أفزعها الملمس المعدني الحاد، نظرت لأعلى لتدرك أنها داخل خزان للمياه، ومع صوت الخرير الصادر من ركن لا تعلمه أدركت أن مستوى الماء يرتفع رويدًا رويدًا.

لم تتعلم السباحة يومًا، وكأنهم كانوا يعرفون.

ومع كل بضع سنتيمترات من ارتفاع المياه كان العرق يغمر وجهها وجسدها، بينما تعلو دقات قلبها ليبدو وكأنها آلة قررت ممارسة النشاز وسط هذا الإيقاع المميت الصامت.

وعندما وصلت المياه إلى مستوى وسطها هرعت كالمجنونة لتبحث في كل الأركان عن أي وسيلة للبقاء مرتفعة عن الماء الذي زادت سرعة تدفقه متحدية خوفها.

ومع وصول الماء إلى مستوى فمها استندت «نورسين» على أحد جوانب الخزان بظهرها ووقفت على أطراف أصابعها محاولة الحفاظ على أنفها خارج الماء، ارتبكت وسقطت، شعرت وكأن الماء شبكة صياد أحاطتها، لا تستطيع الخلاص منها، لكنها انتفضت وأعادت المحاولة، سقطت مرة أخرى وشربت الكثير من الماء الذي تسرب من فمها وأنفها لكنها في النهاية نجحت في الوقوف والمحافظة على اتزانها..عندها توقف صوت تدفق الماء وثبت المستوى.

أصبح الزمن سرمدي ممتد وكأنه بلا نهاية، لم تشغله سوى بعض قطرات العَرَق التي نبتت بفعل التوتر على جبهتها وتسللت دون أي قُدرة على المقاومة إلى عينيها، ومع ازدياد إحساسها بألم عينيها بفعل الملح المتزايد، كان الخدر قد بدأ يسري في أطراف أصابع قدميها واقترب وقت

الاستسلام.

سحبت نفسًا عميقًا ثم قررت كتم نفسها والغوص لثواني تحت الماء لغسل عينيها، مع ذلك الإحساس بالراحة عقب زوال الألم تذكرت ذلك البيت الصغير في طهران، حيث استقر والدها فكان منزلاً وعيّادة يمارس فيها مهنته لأبناء مدينة «تجريش» عاصمة مقاطعة «شميرانات» إحدى مقاطعات محافظة العاصمة والتي تبعد عنها كيلومترات قليلة كانت تقطعها يوميًا فيما يقرب من ثلث الساعة في الطريق إلى كليتها في جامعة طهران.

وداخل كلية اللغات الأجنبية و آدابها والتي درست فيها الإنجليزية رغمًا عن والدها الذي كان يرغب في أن تنضم إلى كلية الطب البيطري في الجامعة ذاتها لتلحق بأخيها الطبيبين حتى ولو بيطريا.

ومع بداية عامها الدراسي الأول خلال سبتمبر ٧٨ كانت البلاد تغلي مطالبة بعزل الشاه محمد رضا بهلوي الذي فرض الأحكام العرفية وحظر التظاهر، لكن «نورسين» التي وعدت والدها بعدم المشاركة في أية فعاليات اكتفت بمشاهدة المظاهرة الحاشدة التي خرجت يوم الجمعة ٨ سبتمبر، والذي عرف بعد ذلك باسم الجمعة الأسود نتيجة العنف الشديد الذي صاحب أحداثه.

ومع دخول البلاد إضرابا عامًا في بدايات أكتوبر كانت قد صحبت أخاها الأكبر ناجي إلى ملتقيات أصدقائهما اليساريين الذي تعرف عليهم خلال الأسابيع القليلة التي قضاها ممارسًا لمهنة الطب في أحد مستشفيات الطهران. وخلال شهرين كانت «نورسين» إحدى أهم ناشطات حركتها اليسارية وقادة مظاهرات ١٢ ديسمبر والتي خرج فيها نحو مليوني شخص ملأوا ساحة «أزادي» مطالبين بعزل الشاه وعودة الخميني

ذلك الزعيم الذي صارت شرائطه أكثر انتشارًا من شرائط الموسيقى والتي يتبادلها الثوار ويسمعون بشارتها بالثورة.

للحظات مرت «نورسين» بنفس إحساس النشوة الذي ملأها يوم سمعت خطابًا للخوميني لأول مرة، كانت بنت الثمانية عشر عامًا لم تمارس الجنس بعد لكنها أدركت إحساسه، لهذا كان يوم رحيل الشاه في ١٦ يناير ١٩٧٩ نزولاً عند طلب رئيس الوزراء الدكتور «شابور بختيار» أحد أسعد أيام حياة الشابة الثائرة.

لم تشارك يومها في تحطيم كل رموز سلالة بهلوي التي كانت في الشوارع مثل العديد من رفاقها، فقط أخذت طريقها عائدة للبيت سيرًا على الأقدام وبعد أربع ساعات كانت واقفة أمام والدها الطبيب حسين صفائي وفي عينيها نظرة انتصار.

وجدته باكيًا على أحد مقاعد غرفة صالون المنزل، نسيت انتصارها في لحظة وجلست على ركبتيها محتضنة رأسه بشدة:

ـ لماذا تبكي يا أبي؟

انهار الاب في بكاء أكثر تشنجًا داخل حضن ابنته الصغيرة ومن بين دموعه أفلت من شفتيه كلمات متقطعة لم تفهمها حينها:

ـ لم تعد بلادنا.. أوصينا بخدمة الأمم وإصلاح العالم.. علينا الرحيل.

وطيلة أسابيع قضاها والدها رافضًا الحديث معها ومع ناجي أخيها، كانت الأم تجمع أغراض المنزل في صناديق كارتونية.

وكان أخوها مهدي يشير ملمحًا إلى هجرة يعدها الوالد إلى بيروت.

وبعد عودة الخوميني يوم ١ فبراير واختيار منافسه مهدي باذرخان

رئيس وزراء مؤقت لحكومة تدير البلاد، أصر ناجي على مناقشة الوالد على غداء يوم جمعة اجتمعت فيه العائلة:

ـ لِمَ تُعودنا على القهر ياوالدي ؟ لماذ تعُدّ الأسرة للهجرة بينما تتجنب الحديث معي ومع نورسين ؟

لم يرد الوالد واكتفى بالنظر داخل طبقه المليء بالأرز، فأبعد ناجي طبقه وقال بصوت أعلى:

ـ لسنا أطفالاً لتنقلنا كما تشاء، طاوعتك في الأولى لأنك والدي لكن بعد انتصارنا.. عليك أن تغير وجهة نظرك.

أجاب الوالد دون أن يرفع بصره عن الطبق:

ـ طوبى لمن يحب العالم خالصًا لوجه ربه الكريم.

قام ناجي غاضبًا فسقط مقعده محدثًا ضجيجًا بدا وكأنه أمرًا بالصمت التام الذي تلاه، رفع الوالد عيناه للمرة الأولى ونظر إليه، انكسرت عينا الشاب الغاضبتين فور لقاءهما بعيني الاب الذي قال:

ـ من جملة تعاليم بهاء الله ترك التعصب الوطني والتعصب المذهبي والتعصب العرقي والتعصب السياسي، لأن عالم البشر مصاب بمرض التعصب، وهذا المرض المزمن سبب الهلاك.

ثم غادر الوالد مقعده في اتجاه «نورسين» واحتضن رأسها برفق وهو يكمل حديثه قائلاً:

ـ الخوميني أشد تعصبا من الشيطان حين عصى الله، وإن بقينا لقتلنا جميعًا.

قاربت رئتا «نورسين» على الانفجار فعادت مرة أخرى إلى وضعها الأول رافعة أنفها فوق سطح الماء لتستطيع التنفس داخل زنزانتها

الحديدية الغارقة في المياه، تذكرت شهورًا في لحظات، لكن عليها الأن أن تبقى متزنة للحظات تبدو كشهور.

أضاء النور فجأة في الخزان لترفع رأسها رغمًا في اتجاه الضوء، فقدت توازنها لتسقط من جديد، لكنها استعادت توازنها سريعا ونظرت لأعلى، جاءها الصوت رنانًا بفعل الحوائط الحديدية مليئًا بالصلف بحكم عسكرية صاحبه:

ـ ياعَبْدِة البهاء كل اسم تنطقينه من قائمة زملائك الشيوعين الملاحدة سينخفض معه الماء ١٠ سنتيمترات.

***

تحسست «نورسين» أثر بقائها في المياه لمدة طويلة على أصابعها وهي تحاول تأمل الزنزانة التي غادرتها منذ قليل، كانت فعليًا تعرف الكثيرين لكنها لا تعرف انتماءات معظمهم، بل إنها في الأغلب اختارت أسماء زملائها الذين شكت أنهم ينتمون للتيار الإسلامي.

عجزت عن تحديد شكل الزنزانة التي غادرتها ولم تلحظ سوى ذلك الإطار الكاوتشوك الذي يغلف إطار الباب لمنع تسرب الماء، وأن ذلك الباب الذي انحنت لتعبره لا يزيد ارتفاعه عن ٧٠ سم.

تذكرت للمرة الأولى أنها لم تأكل شيئًا منذ يومين عندما قرصها الجوع وأعلنت معدتها المليئة بالماء التمرد، لكن أيدي الجنود الصارمة سحبتها في اتجاه جديد.

وأمام نفس الضابط أعاد قراءة القائمة عليها ثم طلب منها التوقيع وتوعدها بمصير سيء إن كانت تكذب، ثم أمرهم باحتجازها في زنزانة

سطحية، لم تفهم الكلمة جيدًا لكنها شعرت بارتياح ما أنها لن تعود إلى الماء.

اصطحبها جنديان عجزت عن تحديد ملامحهما، بديا كتوأمان، لا يختلفان في الشكل ولا الملامح، رفضا الرد حتى على سؤالها الهادىء.

ـ ألا تعرف يا أخي أصباحًا نحن أم مساءً؟

وعلى باب الزنزانة الجديدة ذات الجدران الاسمنتية والتي بلغت أبعادها ٢ في ٣ متر، وجدت «نورسين» مرتبة اسفنجية وطبق به بعض الخضروات المطهية التي فقدت لونها ودورق ماء وشباك صغير للغاية لا تزيد أبعاده عن ٢٠ في ٣٠ سم بالقرب من السقف الذي ارتفع لما يزيد عن خمسة أمتار.

تنفست بعمق بعدما أغلقوا عليها باب الزنزانة وانقضّت على الطعام لتأكل، أصر أنفها على ممارسة دورها الطبيعي وتملأها رائحة الطعام الحامض، فعجزت عن تناوله وأبعدته بعيدًا، واكتفت بوضع العيش الجاف داخل دورق المياه، وظلت تلوكه ببطء شديد لمدة تزيد عن ساعة وهو تنظر تجاه الشباك الذي يعبره ضوء ما يشبه ضوء النهار.

كانت تعرف وكل زملائها الثوار الذين ينتمون للتيار اليساري أن الخوميني لا يعتنق أفكارهم، لكنه كان يحمل نفس الهدف، وكان هذا كافيًا لهم في وقت ما، كان كافيًا للتعاون من أجل خلع نظام فاسد، إلا أنها تذكرت أنه منذ عودته وبدأت جولة جديدة من الثورة انتهت بها داخل تلك الزنزانة.

كان لديهم أهدافًا مختلفة.. البعض ثار من أجل إنهاء الاستبداد، وإنهاء السيطرة الغربية الأمريكية، بينما ثارت هي وزملاءها من أجل مزيد من

العدالة الاجتماعية، بينما ثار الإسلاميون من أجل مزيدًا من الدِين والذي لن يأتي سوى بالسلطة.

وكان طبيعيًا أن يدور صراعًا ينتصر فيه الأقوى وخلال عام واحد بعد الثورة حين كانت السلطة مقسمة بين الحكومة الرسمية والمنظمات الثورية، رئيس الوزراء «مهدي باذركان» الذي عينه الخميني، عمل على إنشاء حكومة إصلاحية ديمقراطية، في حين عمل بشكل مستقل كل من المجلس الثوري المكون من الخميني وأتباعه من رجال الدين، والحرس الثوري، والمحكمة الثورية، والخلايا الثورية المحلية التي تحولت إلى لجان محلية.

وهو ما عبر بها عامها الدراسي الأول في الجامعة في نقاش مجتمعي دائم حول الدستور الذي طرحت حركة الحرية مشروعه في يونيو قبل اختبارات نهاية العام، وأشارت فيه إلى إيران باعتبارها جمهورية خمينية، بها مجلس صيانة يتمتع بحق نقض التشريعات المتعارضة مع الإسلام، لكن دون وصي فقيه حاكم، وهو ما رفضه المجلس.

وخلال الصيف حين كانت الأسرة تغادر إلى لبنان كان ناجي ونورسين باقيين في طهران، لم ينجح والدهما في إقناعهما بالمغادرة، وكانت ليلة الرحيل أشبه بوداع جنائزي لأسرة بأكملها، تغلبت عليها بدراسة اللغة العربية في أحد المعاهد، كانت تعرف مبادئها ولكنها أرادت إتقانها.

وحين جاء موعد السفر ظلت «نورسين» متماسكة أمام والدتها، تمارسان كما اعتادتا دائمًا لعبة الدموع المتحجرة، تحمل عيون الوالدة هلعًا لن ينتهي، بينما تبدو كلماتها وكأنها أم توصي ابنتها بري الزرع أثناء سفرها للمصيف.

أما الوالد فاكتفى بالبكاء الصامت واحتضان كليهما لمدة تزيد عن ساعتين، طالبًا منهما السفر إليه بمجرد استشعار الخطر.

كانت تعرف أن ناجي بذل مجهودًا مضاعفا ليقنع والده ببقاءه معه، كانت تعلم أنه مازال رافضا لكنه لم يعتد إجبارها على ما لاتريد، وأنه فكر أكثر من مرة في البقاء لولا إصرار مهدي على الرحيل.

تأملت مهدي للمرة الأخيرة وكأنها الأولى لأنها لاحظت أنه لا يشبهما، كان ناجي بملامحه الفارسية الواضحة، الجبهة المثلثة والحاجبان الهلاليان والعينان الواسعتان والأنف الحاد والشفاه الرفيعة والشعر الأسود الفاحم الكثيف، والبشرة البيضاء يشبهها كثيرا ويشبه والدتها تمامًا، بينما كان مهدي يشبه والدهما ببشرته المشربة بسمار خفيف وأنف مفلطح وجبهة عريضة واسعة، وزوج ضيق من العيون، حتى ذلك الكرش المنبعج الذي حمله والدها كان مهدي يحمل آخرًا صغيرًا رغم سنوات عمره الثلاثة والعشرون.

احتضنا بعضهما وتواعدا وحين ألقت كلمتها الأخيرة مازحة وسط شلال من الدموع ملأ وجوه الجميع كانت تقول:

ـ عائلة تهرب من ثورة إلى حرب أهلية.

لم يبتسم أحد، بل احتلت الغصة وجوه الجميع، فاحمرّ وجهها وانسحبت لتودعهم من خلف الشباك، بينما قاد ناجي السيارة «كابريس» ليقلهم إلى المطار.

ومع بداية العام الدراسي الجديد كانت لا تنفصل عن ناجي يصحيان وينامان في توقيت واحد، يأكلان سويًا ولا تفرقهما سوى ساعات العمل حين كان يوصلها إلى الجامعة ويذهب إلى عمله كطبيب أطفال

بل كان كثيرا ما ينتهز أوقات فراغه ويدخل معها الجامعة ليمارس أنشطتها الطلابية، وكانت مساءًا ترافقه لاجتماعات بعض اللجان.

وفي هذا التوقيت كان مجلس الخبراء قد وضع دستورًا جديدًا أوجد من خلاله منصب القائد الأعلى للخميني، ومنحه السيطرة على الجيش والأجهزة الأمنية، والحق في نقض المرشحين للمناصب، كما أقر بانتخاب رئيس جديد يتمتع بصلاحية أضيق، لكن المرشحين يجب أن يحوزوا على الموافقة المباشرة من القائد الأعلى، وقد أصبح الخميني نفسه رئيسًا للدولة مدى الحياة باعتباره «قائد الثورة».

ورغم كل الجهود التي بذلوها لرفض هذا الدستور شعبيًا عن طريق التصويت، تقدم رئيس الوزاء في نوفمبر باستقالته بعدما شعر بقوة مد التيار الإسلامي، وتمت الموافقة عليها في استفتاء أجري في ديسمبر ١٩٧٩، وأصبح الخوميني «المرشد الروحي الأعلى».

وعلى الرغم من المظاهرات التي حاولت التنظيمات اليسارية تنظيمها لمنع إعدام كبار الجنرالات، إلا أن بعد شهرين أعدم أكثر من ٢٠٠ من كبار مسؤولي الشاه المدنيين بهدف إزالة خطر أي انقلاب، وأجرى قضاة الثورة من أمثال القاضي الشرعي «صادق الخلخالي» محاكمات موجزة افتقرت إلى وكلاء للدفاع أو محلفين أو إلى الشفافية، ولم تمنح المتهمين الفرصة للدفاع عن أنفسهم، وأعدم البعض دون محاكمة.

ومع بدايات الربيع كان ناجي قد تغير تمامًا، وضع على باب المنزل أكثر من مزلاج، واشترى سلاحًا لا ينام إلا وهو تحت وسادته، تخلى تمامًا عن أناقته المعهودة وأطلق لحيته وبدا دائمًا مشوشًا وخائفًا.

طلب من «نورسين» عدم مشاركته الاجتماعات وبدءا الشجار للمرة

الأولى، وخرج يومًا ولم يعد.

يطالبها والدها يوميًا عبر الهاتف بجنون بمغادرة البلاد، ظلت تجوب شواره طهران لمدة أسبوع باحثة عن ناجي، أخبرها البعض أنه أعدم في الشارع دون محاكمة، وأخبرها آخرون أنه تم اعتقاله، بينما قالت لأبيها هاتفيًا أنه لابد وقد عاد إلى «تبريز»، وحين يئست تمامًا من العثور عليه، كانت «الثورة الثقافية» تدق الأبواب، أغلقت الجامعات التي اعتبرت معاقل لليسار مدة سنتين لتنقيتها من معارضي النظام الديني بقرار من الخوميني.

وعندما قررت العودة إلى «تبريز» بحثًا عن ناجي كانت قوات الأمن على باب المنزل تهدم الباب بمزاليجه التسعة التي لم تعتني بإغلاقها، حطموا ما تبقى من مكتبة والدها وجمعوا كتبها وكتب ناجي وعثروا على السلاح الذي لم يستخدم قط، واصطحبوها إلى المعتقل.

***

ثلاثة أيام في الزنزانة وحيدة، يدخل الطعام مرتين عبر فتحة خاصة، تتبول في الركن المعاكس للركن الذي تنام فيه، تجتر ذكرياتها حين تتوقف الصرخات عن احتلال فضاء المعتقل، تنتظر أن يُفتح الباب لكنها عجزت عن استيعاب خوفها من المجهول الذي قد يحمله خلفه، حتى ذلك اليوم الذي اصطحب فيه ضابط من الحرس الثوري جنديين تابعين له.

ارتعدت بمجرد فتح الباب وتكومت على نفسها أكثر فأكثر، أشار الضابط الملتحي للجنديين مشيرًا إليها، تقدم أحدهما فابتسم الآخر راضيًا، أشار لها الضابط حتى تقف، حاولت وفشلت لكن الجندي الذي تقدم ساعدها حتى استندت على الحائط واقفة.

سألها بابتسامة:

ـ عذراء؟

لم تفهم «نورسين» السؤال فلم تجب، نغزها بعصا كانت معه:

ـ عذراء يا بنت الزانية؟

أجابت دون أن تفهم:

ـ نعم عذراء.

اتسعت ابتسامة الضابط وأشار للجندي الذي بجوارها قائلاً:

ـ زوَّجتُك إياها حتى ترسلها للجحيم، العذروات إذا متن لا يدخلن النار، لديك ثلاثة أيام قبل إعدامها، ولا تنس الحصول على عنوان أهلها حتى تدفع مهرها الذي تصرفه من الإدارة بعد وفاتها.

سقطت «نورسين» مكانها عاجزة عن النطق، تركوها دون كلمة وانصرفوا بعد أن أغلقوا الزنزانة، وفي العاشرة والنصف مساء انطفأت كل أنوار المعتقل وفتح باب زنزانتها.

لم تُبصر من يقترب منها، فقط ملأت أنفها رائحة عرقه الزنخة، مد يديه ليحتضنها واقترب بوجهه، فشعرت برغبة في التقيؤ من رائحة أنفاسه العفنة، انقض عليها مستغلا عدم قدرتها على الحركة والفارق الضخم بين جسده الكبير وجسدها النحيل الذي زاده الاعتقال نحولاً، جذبها من شعرها الطويل وأسقطها أرضًا.

مزق ملابسها، حاولت خمش وجهه بأظافرها لكنه جذب شعرها مرة أخرى ليصدم رأسها بقوة في الأرض، اعتدى عليها سبعة مرات متتالية حتى أضاءوا النور، فهمت عبر همهماته أنه ظل لمدة خمس ساعات يغتصبها.

اختلطت دماء بكارتها بدمائها التي سالت من وحشيته في جرها على الأرض وطَرْق جسدها ورأسها بالأرضية الأسمنتية لحظة وصوله إلى ذروة نشوته، وقبل أن يغادر أهداها فوطة وعاد سريعا بقطعة لحم مشوية لتستعيد قوتها وضعها في فمها بقوة ثم اختفى.

عجزت حتى على أن تلوكها وأغشي عليها وبقيت القطعة ملتصقة بلسانها الذي تدلى خارج فمها.

لم تستيقظ إلا وهم ينقلونها إلى زنزانة جديدة، وأمام نفس الضابط الذي أمر الجندي باغتصابها وجدت نفسها مقيدة على مقعد بعد أن تم ابعاد رجليها عن بعضيهما عبر شد كل رجل بالحبال إلى زاوية في الحائط، بعد أن نزعوا كل ما ترتديه.

صرخ الضابط في غضب:

ـ بهائية كافرة لا تستحقين حتى الزواج، دنست أحد رجالنا بكفرك، لن أريحك بالموت حتى أنتقم له.

لم تفهم «نورسين» شيئًا مما قاله، إلا أنها انتفضت حين أقترب أحدهم بجرذ ضخم من موطن عفتها، بكت وصرخت واسترحمت كل من في المكان بكل الأرباب، وبكل الأمهات والأهل، بينما ظل الفأر يقترب حتى بدأ اللحس في شفرة عضوها التناسلي.

حاولت الحركة لكنها كانت مثبتة جيدًا، ومع اهتزازها الضعيف عضها الفأر في فخذها ثم في عضوها التناسلي حتى شعرت وكأن كهرباء تسري في جهازها العصبي، فانهارت مغشيا عليها من فرط الألم.

صرخ الضابط مرة أخرى:أفيقوها واحقنوها بالمضادات الحيوية وأعيدوا الفأر كرة أخرى حتى تتطهر.

***

القاهرة ٢٠١٣

تقلصت ملامح «نورسين» وكأنها تشعر بألم شديد، أقترب منها أيمن فوجدها تلهث وكأنها كانت تجري، ربت على كتفها وقال:

ـ اهدي يا أمي، مش لازم تكملي الحكاية.

أشارت له والدته كي يعود بها إلى غرفتها، أعادها إلى فراشها واطمئن إلى أنها نامت ثم نظر إلى ساعته وجدها قد جاوزت الثالثة ظهرًا، قرر مغادرة المنزل بحثًا عن رائحة مختلفة مسترجعًا كل ما روته أمه.

أجرى اتصالا بـ"جين" إلا أنها لم ترد على تليفونه، قرَّر الذهاب إليها دون اتصال مسبق. وفي إشارة روكسي اقترب من شباك سيارته أحد الشحاذين، أشار له أيمن قائلا:

ـ الله يسهلك ياحاج.

واصل الرجل اقترابه ثم همس باسمًا:

ـ الله يسهلك انت كمان.

رجع أيمن برقبته إلى الوراء بعد أن ارتسم حاحباه على شكل رقم ثمانية مستعجبًا مما فعله الشحاذ، قبل أن يجذب انتباهه صورة جديدة على المقعد بجواره ظهر فيها والده بجوار عمه عيد، ولأول مرة صورة جديدة بلا أمه هذه المرة، استغل فرصة الإشارة المزدحمة الحمراء، وفتح باب السيارة محاولاً نداء الشحاذ، إلا أنه اختفى تمامًا من أمام عينيه، وقبل أن يتحرك معيدًا البحث عنه، كانت السيارات تطلق نفيرها غاضبة من وقوفه بعدما تحول لون الإشارة للون الأخضر، ودون أن يدري كان يقود سيارته عائدًا في اتجاه حي المطرية حيث يقطن عمه عيد، الذي استقبله بترحاب شديد وبين أحضانه القوية قال له:

ـ أنت فين يا ولدي، واحش عمك يا واد يا أيمن، كل دي سنين متسألش؟

احمرَّ وجه أيمن من الخجل وتمتم بالعديد من كلمات الاعتذار التي لم يسمعها عمه الذي جذبه من يده ليجلسه بجواره على أريكة بلدي ودموعه تنهمر بشدة وهو يقول:

ـ شكري مشي زعلان مني يا أيمن، شكري مشي وسابني لوحدي، كل اللي حبيتهم سابوني ومشيوا، جدك والأستاذ وشكري.

ـ ربَّت أيمن على كتف عمه محاولاً تهدئته، إلا أنه التفت له وابتسم رغمًا عن دموعه وتأمل ملامحه بدقة أكثر، ثم احتضنه من جديد وهو يقول:

ـ لا شكري ما متش، أنت شكل شكري بالظبط.

تخلص أيمن من عمه ونهض ملتقطًا السبرتاية التي وضعها على منضدة «السفرة» وهو يقول:

ـ ما تيجي نشرب قهوة يا عمي، عايزك في موضوع.

وخلال إعداد القهوة كان يروي لعمه ما صنعته به الصور وبعضًا مما روته والدته، قبل أن يخرج تلك الصورة التي وجدها على مقعد سيارته وساقته إلى داره..ابتسم عمه من جديد وهو يعد القهوة بهدوء شديد وهو يقول:

ـ أخيرًا عرفت دينك يا أيمن؟!

أجاب أيمن وهو يلتقط فنجان قهوته من عمه:

ـ عرفت ياعمي ومش عارف انتو مخبيين عليا إيه تاني.

- ماهو ده سبب خناقاتي أنا وأبوك في الفترة الأخيرة، أنت.
- أنا إزاي؟!
- مش مهم ازاي، الله يرحم شكري بقى.
- لا ياعمي أنا لازم اسمع كل حاجة.
- عن خلافنا يعني؟
- لأ القصة من الأول، لما أمي ابتدت تحكي م الأول ابتديت أكتشف حاجات فيا مكنتش فاهمها ارجوك أحكيلي من الأول

ابتسم عيد أبو عيّاد، وعاد بظهره مرتشفًا قدح القهوة بتلذذ واضح، قبل أن يبدأ الحكي

***

القاهرة (الستينيات والسبعينيات)

لم يغير عيد أبوعيّاد أبدًا عاداته اليومية في عمله كملقن مسرحي، بمجرد أن يقفل ستار المسرحية يغادر مكانه في «الكمبوشة» ليتناول فنجان القهوة الذي يعده عامل البوفيه مسبقًا، كان لا يشرب القهوة إلا باردة في ركن بعيد عن غرف الممثلين الذين يعودون بعد فتح الستارة مرة أخرى لتحية الجماهير. كان عيد يهز رأسه برضا أكثر كلما ارتفع دوي التصفيق يستطعم طعم قهوته أكثر، كان صوت التصفيق بالنسبة له أمتع من كل موسيقى الدنيا.

وبعد انصراف الممثلين، كان ينهي قهوته بكوب من ماء فاتر، كان يصر دائمًا أن يأتي به عامل البوفيه من «الحنفية» مباشرة دون المرور على الثلاجة، ولا تختلف تلك العادة باختلاف الفصول، فقط كوب

مياه نظيف من الحنفية، يشربه ويدخل إلى خشبة المسرح وحيدًا ليحيى الجمهور الذي يكون قد انصرف.

ينحني ودوي التصفيق الذي سمعه أثناء شرب قهوته مازال في أذنه، ثم يضع كفيه فوق بعضهما على صدره ويهز رأسه قبل أن يغادر خشبة المسرح دون أن يعطي ظهره للصالة أبدًا. يمشي بعدها من المسرح أيًا كان مكانه إلى ميدان العباسية، يستنشق رائحة النهار الوليد وأول تباشيره. يصل عند عربة فول بجوار الموقف الرئيسي للأوتوبيسات، يتناول إفطاره المعتاد، طبق الفول بالزيت الحار دون طحينة مع «شطة زيادة» مع رغيفين من العيش البلدي الصابح ونصف ليمونة. وبعدها يحبس بكوب من الشاي من على نصبة بجوار برج مصر للسياحة وهو مازال جالسا بجوار عربة الفول، يتجشأ ثم يقفز في أوتوبيس متجه إلى حي المطرية حيث يسكن في شارع «شجرة مريم»

لم ينجح المرض أو الإجهاد أو الغضب أن يغير أي تفصيلة من تفاصيل عيد أبوعيّاد، وحده فقط توقف النشاط المسرحي كان يغير وجهته إلى سوق الأزبكية، حيث هوايته الثانية التي عشقها أكثر من عائلته. يعرفه باعة الكتب لأنه يأتي كل ثلاثاء من كل أسبوع في أجازة المسرح، يقضي الفترة ما بين العصر والعشاء في تقليب الكتب وقراءة بعض مقاطعها وفهارسها واقفًا أو جالسًا على مقعد أو حتى على الأرض، كان ينسى الدنيا تمامًا حين يجد كتابًا يعجبه وغالبا ما تكون رواية، يقرأ صفحاتها الأولى ويغوص فيها، ومع أذان العشاء حين يستعد الباعة للرحيل يكون على متن المترو الذي يسير الهويني حتى يستمتع بغنيمة الاسبوع، روايتان أو ثلاثة يربت عليهما ويعامل أوراقهما برفق مبالغ فيه، وعلى وجهه ابتسامة تصلح لعمل إعلانات عن السعادة إذا أراد يوما القدر أن يُعلن عنها.

يحادث كتبه بحميمة دون أن يلتقت لنظرات الاستنكار في عيون الناس، يغادر المترو في المطرية ليجلس على أقرب مقهى من المحطة يتصفح الصفحات العشر الأولى من كل رواية قبل أن يستقر على واحدة يقضي الليلة معها في فراشه.

* * *

يزور عيد طليقته أنيسة مرة كل عام خلال عيد النيروز، تستقبله دائما بنفس الوجه المتجهم، لم تطل حياتهما الزوجية سوى سنة وشهرين، تزوجها في مارس ١٩٨٤ وطلقها في مايو ١٩٨٥، تزوجها عملاً بمقولة حضرة عبد البهاء: « إن تأسيس العائلة أمر في غاية الأهمية فالإنسان طالما هو في مرحلة الشباب ومغترًا بشبابه لا ينتبه إلى ذلك غير أنه عندما يشيخ يتأسف جدًّا».

ولتدينه الشديد وتدين والد خطيبته لم تطل الفترة عن ٩٥ يومًا تنفيذا لتعليمات حضرة بهاء الله في الكتاب الأقدس، وأهداها مهرها تسعة عشر مثقالاً من الذهب ذهبا كمدني من ابناء القاهرة.

وأقاما حفلاً بسيطًا للإعلان عن الزيجة على سطح منزل الزوجة حضره أخوه شكري وزوجته نورسين وإخوة العروسة وبعض أقاربهما المشتركين، حيث كانت تربطهما قرابة بعيدة لأنهما يشتركا في الجد الخامس، ذلك التاجر الشامي الذي استقر في مصر منذ ما يقرب من مائة وخمسون عاما.

قال لها أمام الشهود:«إنا كل لله راضون»

وردت عليه في خجل:«إنا كل لله راضيات».

صفق الجمع وشربوا الشربات ابتهاجًا بينما أطلقت والدة العروسة زغاريدها معلنة للحي زواج ابنتها، وعلى بعض أنغام الموسيقى التي انطلقت من جهاز كاسيت كبير أحضره شكري من بعض معارفه تبادل الجمع التهاني وتناولوا عشاءًا بسيطًا من بعض ساندويتشات اللحم البرادة والجبن وقطع الجاتوه مع المياه الغازية.

وبعد مرور شهرين طلبت أنيسة الطلاق، لم تحتمل نهائيًّا عادات عيد وحفاظه الرهيب عليها.

كانت عندما تشكو إليه أمرًا ما، يغرق بين صفحات كتابًا يقرأه، وعندما كان يتحدث كان يطالبها بالإنصات.

سكب لها أواني الغداء يوما لأنه كان يكلمها عن مسرحية قرأها ليوسف إدريس في المطبخ، بينما انشغلت هي بتذوق الطعام لقياس نسبة الملح فيه، لم يحتمل عيد ألا تسمع امرأته مايقول، انفعل وفعل فعلته ثم غادر المنزل إلى ستوديو أخيه.

وفي كل مرة كان يدب الخلاف بينهما خلال شهرين فقط من الزواج، كان الأمر ينتهي بتوسط شكري لأخاه ومصالحة العروسة الجديدة التي لم تستوعب أبدا تصرفات عريسها.

وفي النهاية عندما مرضت أنيسة وظلت طريحة الفراش لمدة ثلاثة أيام، كان عيد خلالهم يأتي المنزل فقط ليغير ملابسه ويطمئن عليها لدقائق قصيرة قبل أن يغادره مرة أخرى ليجلس على القهوة مصطحبًا إحدى رواياته، أو لينام بعد يوم العمل حتى موعد العمل في اليوم التالي، أيقنت أنها تحيا مع إنسان لا يراها، فغادرت المنزل أثناء وجوده في المسرح موكلة أباها لطلب الطلاق، وتنفيذًا لتعليمات الشريعة كان عليهما أن يصطبرا لمدة سنه كاملة.

التزم عيد اثنائها بنفقة زوجته حتى وهي في بيت أبيها، وبذل والدها وشكري جهودًا مضنية لتسوية الخلاف بينهما، لكنهما في النهاية رضيا بقرار الزوجة بالرحيل، وكانا شاهدين على الطلاق رغم ضيقهما الشديد به.

يتذكر بعدها عيد أنه كان سعيدًا بالوحدة، حيث لا يستطيع أي إنسان محاولة تغيير نظام حياته، شكر الله كثيرًا بالتفرغ لقراءة الكتاب الأقدس شهرًا كاملاً، هجر فيه رواياته وانتظم في صلواته، لكنه أبدًا لم يغير عادته الجديدة في زيارتها مرة واحدة سنويًا حاملاً بعض الحلويات وكأنه في قرارة نفسه يشكرها على طلب الطلاق الذي لم يكن سيجرؤ على طلبه خوفًا من غضب الرب.

* * *

كان شكري أبوعيّاد أعلم الناس بطبيعة أخيه الخاصة بحكم النشأة والعشرة الطويلة، كان يعرف جيدًا أن عزلته التي فرضتها ظروف وفاة والدتهما وهي تنجبه، وانشغال والده الدائم في المطبعة التي كان يعمل بها لدرجة أنه كان يصطحبه قبل سنة المدرسة لقضاء أجازته بين ماكينات الطباعة حتى لا يتركه مع أخيه الذي يكبره بخمس سنوات.

كان يعلم أن هناك علاقة خاصة بين عيد والجماد، خاصة إذا كان لهذا الجماد علاقة بالورق أو الخشب فيما بعد عند عمله بالمسرح، كان يدرك أيضًا أن أخاه اعتاد الحديث دون أن يرد عليه أحد بين ماكينات المطبعة التي كان يلاعبها ألعاب طفولته. لم يكن يتحدث مع أحد ويسمع ما يقول سوى والده، وكانا في حضور شكري يتبادلان إشارات كان يشعر معها أحيانًا أن وجوده غير مرغوب فيه.

ظلت علاقتهما ضعيفة حتى عندما رحل الوالد وهو في مراهقته ولم يكمل عامه السابع عشر، ثم كان قراره الاكتفاء بالحصول على دبلوم التجارة والعمل داخل المطبعة التي عمل فيها أبوه، والتي عمل فيها فترة الصيف من كل عام.

حتى التقى يومًا بعبد المنعم مدبولي أثناء تسليم مسرحية ألفها له في منزله بناءًا على طلب من صاحب المطبعة التي يتعامل معها النجم الكبير.

لم يحكي عيد أبدًا لأحد عن تفاصيل هذا اليوم سوى أخاه شكري، تحدث بعد شهور من هذا اللقاء وفي عينيه نظرة لم تتكرر مرة أخرى، كان ساهمًا وكأنما كان يحدث نفسه:

الأستاذ راجل حازم جدًا على الرغم من حساسيته المفرطة وحنانه الشديد، علمني ازاي اتعلم من أخطائي، بيسمعني كويس وبسمعه أكتر، فيه كثير من شخصية بابا عبده اللي قدِمها في مسلسل «أبنائي الأعزاء شكرًا»، صحيح هو عصبي وبيسموه «نيرون» إلا إنه زي ما بيغضب بسرعة بيروق بسرعة، أنا بشوف أبويا في كل ملامحه وتصرفاته.

أدرك ساعتها شكري أن عيد وجد أبًا جديدًا وأنه سعيد، لهذا لم يتفاجأ عندما أخبره يومًا أنه سيعمل كملقن ضمن فرقة «المدبوليزم» التي تأسست عام ١٩٧٥، فقط كان سعيدًا أن علاقته بأخيه قد صارت أكثر حميمية لأن أخاه وجد نفسه أخيرًا.

* * *

كان قرار ترك المسرح ثاني أكبر صدمة في حياة عيد أبو عيّاد بعد وفاة أبيه، لم يكن تخطى السادسة و الثلاثين من عمره، بعد ما يزيد عن العمل اثنتا عشر عاما كملقن بصحبة مدبولي.

ظل وحيدًا لمدة أسبوع بكامله رافضًا أن يلتقي بأحد، حتى زاره الأستاذ مدبولي للمرة الأولى والأخيرة بناءًا على زيارة من شكري أبوعيّاد لمنزل الفنان في شارع عمار بن ياسر في مصر الجديدة شارحًا وضع أخيه الصعب.

أصر مدبولي على أن يصطحبه شكري إلى منزل عيد، ثم صعد وحيدًا وانصرف الأخ الأكبر إلى الاستوديو.

يومها لم يملك عيد نفسه واحتضن مدبولي باكيًا كطفل صغير، ربت الفنان على ظهره وتخلص منه بهدوء وهو يقول:

- إيه ياراجل ياعرة، بيتك ده مفيهوش كوباية شاي؟

ابتسم عيد وأسرع ليعد الشاي لأستاذه الذي أمسك يده قائلاً:

- يلا نشرب الشاي في بيتي.

وداخل بيت عبدالمنعم مدبولي جلسا يشاهدا حلقة للمصارعة الحرة، تبادلا الرهان على المصارع الذي يكسب الجولة، ضحكا متجاوزين وضعيهما كنجم وفنان شهير وملقن متواضع كان يعمل حتى وقت قريب في فرقته.

سمح له مدبولي أن يدخل مكتبته، واتفقا على أن يستعير منها ما يريد على أن يرده في موعد محدد واتفقا على أسبوع لكل مجموعة كتب، وفي موعد العشاء أصر الفنان على أن يشاركه عيد العشاء قبل أن ينصرف بعد أن ذهب حزنه تمامًا.

مر على أخيه في الاستوديو "اضحك الصورة تطلع حلوة"، كانت الابتسامة على وجهه كفيلة بتشجيع شكري على عرض فكرته بافتتاح محل لتصوير المستندات بجوار منطقة جامعة عين شمس بالقرب من

قصر الزعفران.

لم يفكر عيد كثيرًا وافق على أثر السعادة التي كان يشعر بها، ثم عاد إلى منزله دون أن يلم بكل تفاصيل المشروع، فقط صار لديه عادة جديدة بزيارة أستاذه بانتظام مرة كل أسبوع لمجالسته قليلاً حسب انشغاله واستعارة بعض الكتب، والذهاب إلى محله الجديد.

* * *

لم ير أحد عيد غاضبًا مثل ذلك اليوم في صيف عام ٢٠٠٣ لدرجة أنه غادر محله دون أن يغلقه متجهًا إلى محطة القطار في رمسيس للسفر إلى الأسكندرية لمؤازرة عبدالمنعم مدبولي بعد الحملة التي شنتها عليه الصحف عقب عرض مسرحية «ريا وسكينة في مارينا».

وداخل القطار الذي تحرك كان عيد متفرغًا لإعادة قراة ما كتب عن ملابس بطلة المسرحية الفاضحة وعدم التزامها بالنص وصمت مدبولي تجاه ما كان يحاربه شخصيًا في الماضي، ومع مرور الوقت وممارسة الركاب عادتهم الحميمة بقراءة جرائد الغير نهض عيد واقفًا في الممر الفاصل بين صفي المقاعد في القطار الفرنساوي رافعًا صوته وكأنه على خشبة مسرح ليقول: الأستاذ مدبولي لما كان يطلع على الخشبة كان التصقيف بيفضل حوالي ربع ساعة، أنتن ممثل فيكي يا مصر كان تصقيفه خمس دقايق، مدبولي اللي كان لما يرمي الإفيه قلب مصر ذاته يترجّ من كتر الضحك، مدبولي اللي خرَّج أحمد زكي وعادل إمام ويونس شلبي وأشرف عبدالباقي وغيرهم بيهاجموه. التفت بعض الركاب إلى عيد بينما ابتسم البعض الآخر وأشار أحدهم لزوجته هازًا كف يده بعلامة الجنون، لكن هذا لم يمنع عيد من إكمال ما بدأ:

ـ الأستاذ مدبولي اللي عمل مسلسلات بكت مصر زي «أبنائي الأعزاء شكرًا»، وأفلام حتفضل علامات زي «الحفيد» بيهاجموه شوية صحفيين مأجورين، طيب بذمتكم في كام واحد في عربية القطر دي بيحب مدبولي. ودون أن يرد أحد كان عيد الذي أخذ يتحرك من مقدمة العربة إلى نهايتها بسرعة كبيرة يقول وهو يلهث:

ـ محدش يقدر ميحبش مدبولي.

وفي الأسكندرية ظل جالسا لمدة ست ساعات أمام بوابة المسرح انتظارًا لخروج أستاذه بعدما رفض الأمن دخوله، أحصى رغمًا عنه أعداد مرتادي المسرحية وأحزنه قِلة العدد، تنصت منتظرًا التصفيق الحاد لكن الصوت لم يعانق أذنيه، بقى كأرض عطشى لم تروها المياه، وبمجرد خروج مدبولي من باب الممثلين التهب كفاه من التصفيق لأستاذه الذي ابتسم في وهن واحتضن تلميذه بحنان.

ومع تباشير الفجر داخل أحد مطاعم كورنيش الأسكندرية بصُحبة مدبولي تناوَل عيد أول طعام يدخل معدته منذ قرأ جرائد صباح اليوم الذي انتهى، ومع انشغال أستاذه بمصافحة معجبيه بدأت روحه في الاطمئنان قليلاً.

عجز عن مناقشته في الموضوع، أشار فقط لمجموعة الجرائد التي يحملها في يده، نحى مدبولي الجرائد بيده واقترب برأسه من رأس عيد الذي اقترب بدوره ثم همس له:

ـ تيجي نرجع القاهرة؟

كان شكري يدرك جيدًا أن أخاه فقد جزء كبيرًا من روحه بعد نبأ وفاة أستاذه عبدالمنعم مدبولي، صاحبه إلى الجنازة، حمله حملاً حين خارت

قدماه مع مشهد الدفن، ظل جالسًا أمام المقبرة بعد أن انصرف الجميع، تركه شكري قليلاً وتراجع خطوات قليلة ليفسح له المجال لحوار أخير معه..همس عيد ودموعه تغالب حروف كلماته:

ـ مشيت يا أستاذ، طيب سبتني لمين، أبويا لما مشي سابني ليك، خد بالك من نفسك وضحّكهم عندك كتير، أنا عارف إنك قادر تضحّك ربنا ذاته.

بعدها صار أقرب إلى الله بفضل انعزاله عن البشر، لم يكن يتحدث سوى مع أخيه وأستاذه وربه، ومع رحيل الأستاذ الأب وجد عيد في علاقته بربه بديلاً، انغمس فيها تمامًا، كانت تعاملاته اليومية تعتمد على أقل عدد ممكن من البشر بعدد أقل من الكلمات، استعمل صبيًا في محله ليتعامل مع الزبائن بينما بقى على مكتبه بصحبة الكتاب «الأقدس»، الذي لم يكن يغلقه سوى ليناجي ربه.

كان في حالة تصالح كامل مع نفسه لا يعكره سوى زيارات أخيه التي بدأت تتباعد بحكم خوفه من التلميح بأي شيء يخص الدين وإنكاره أحيانًا، كان حزينًا بعد أخيه عن أبيه الجديد، كان قريبًا من والديهما حتى رحل، وحين كان مدبولي موجودًا كان أخوه مصوّره الخاص، لكنه الآن بعيدًا، لم يعد أخًا كما كان.

بدأت المشاحنات بملحوظات كان عيد حريصًا عليها كلما التقيا عن ضرورة الالتزام بمواعيد الصلاة وإخبار أيمن بحقيقة ديانته خاصة أنه أنهى دراسته الجامعية وعلى وشك خوض حياته العملية، لكن عقب خلاف أيمن مع أباه، كان عيد شامتًا في أخيه الذي لم يربي ابنه على التعاليم الدينية الصحيحة بل وأخفى عليه ديانته فجاءت عقوبة الله في ابن عاق.

كان لقائهما الأخير في عيد النيروز في ٢١ مارس ٢٠٠٥، كانت مشاجرتهما الأولى:

ـ أنت يا شكري بتخرج من الملة حبة حبة.

ـ مش من حقك تكفرني يا عيد، عيب أنا أخوك الكبير.

ـ بطل جبن يا شكري، جبنك ضيع منك ابنك.

شوح شكري بيده غاضبًا:

ـ أنا مش جبان ياعيد.

ابتسم عيد في سخرية:

ـ آه بأمارة إن كل جيرانك فاكرينك مسلم، صح؟

ـ انت عايز مني إيه يا عيد؟

ـ حضرة عبدالبهاء بيقول: أيها الأحباء كونوا بمنزلة السراج للعالم الظلماني، وبمثابة النور للظلمات.

ـ ومالهم المسلمين، انت شكلك نسيت إنهم مش كفرة.

ـ أنا مقصدتش إنهم كفرة، أن اقصد تزييفك وكدبك وخوفك من دينك اللي أنت مؤمن بيه.

ـ أنت مالك يا أخي، أنت مالك.

ـ اجتمعوا على ما شرعناه لكم ولا تتبعوا سُبل المختلفين.

نهض شكري من خلف المكتب الذي احتل الركن الشرقي من مدخل الاستوديو ومد يده جاذبًا أخاه الأصغر من يده للخارج وهو يشير إلى الشارع:

ـ اتفرج بص حواليك، انت مش عايش في العالم بتاعنا، انت عايش

مع أستاذك الله يرحمه وكتبك، شوف كم المتطرفين اللي موتك على إيديهم بالنسبالهم يعني دخولهم الجنة.

ابتسم عيد في سخرية، وهو يفلت يد أخيه ويغادر الاستوديو قائلاً:

ـ مش قولتلك جبان يا شكري، ليه حق أيمن يسيبك ويمشي.

لم يلحق شكري بأخيه الذي قفز في أول سيارة أجرة متجهًا إلى محله في العباسية، لكنه وقف يصرخ في عرض الطريق:

ـ أنا مش جبان يا عيد، أنا مش جباااااان.

* * *

القاهرة ٢٠١٣

ـ أنا راجل مش بيحس غير إنه حي غير لما يشم ريحة الخشب، قلبي مش بيدق بانتظام غير لما بسمع تصقيف ناس مش شايفها، معرفش أتفرج على تليفزيون ولَّا سينما لأني اتعودت أشوف رجلين الممثلين بس واستمتع، منجحتش في جوازي ولا خلفت ولا بقالي أصحاب لأني متعودتش أسمع كلام غير اللي بقوله. يوم ما «الكمبوشة» اتلغت من المسرح، اتحايلت لمدة ساعتين على صاحب الفرقة إني أخدها معايا البيت، ويوم ما سدوا الفتحة اللي على الخشبة حسيت بحساب الملكين بعد قفلة القبر. مستحملتش أقف كتير في الكواليس وهجرت المهنة وفتحت ركن تصوير الورق بمساعدة أبوك.

ـ صحيح بالمناسبة أبوك هو اللي صورني كل الصور اللي مع الممثلين دول، عادل إمام وسعيد صالح، وفؤاد المهندس وشويكار وسهير البابلي وجلال الشرقاوي وحسن مصطفى.

ـ وكمان صوري وأنا بحضر شغلي جوة «الكمبوشة». عارف أنا فتحت محل مكن تصوير الورق ده علشان أنا بحب ريحة الورق وشكله.

ألقى أيمن نظرة على اليافطة الباهتة بفعل الزمن والمعلّقة على المحل الصغير وهو يوصل عمه إلى مقر عمله بعد أن تجاوزت الساعة السادسة: «الملقن لتصوير المستندات»، وانتهز فرصة انشغال عمه ببدء العمل وتصوير بطاقة أحد الزبائن وانسحب في هدوء يشبه تمتمة شفاه عمه التي لا تنقطع في أوقات صمته وهو يتساءل عما يقول.

بينما كان عمه يردد دون أن يدرك ما يقول: – أنت الكلب الكبير، أنت نعجة وحصان.

لم يضف عمه جديدًا لا يعلمه سوى سبب قطيعته مع أبيه، لم يكن يعرف العم جيدًا بفضل عزلته الشديدة، كانا يلتقيان في الأعيّاد الإحدى عشر فقط، يصطحبه عمه في نهاية زيارته لأبيه إلى بقال على ناصية الشارع ليشتري له كميات رهيبة من الشيكولاته، ثم يختفي تاركًا إياه مع الرفاق في الشارع.

كان ساعتها بحكم صغر سنه لا يعرف سبب تلك الزيارات محددة المواعيد، لم يخبره والداه أبدًا بتلك الأعيّاد، كان يحتفل مع أقرانه بالعيدين الكبير والصغير ويشتري ملابسه ويحصل على عيدياته تمامًا مثل كل الأطفال، لكنه عمه لم يكن يزرهم في هذا التوقيت.

أعاد النظر إلى تلك الصورة التي جمعت والده بعمه أمام قصر الزعفران في العباسية، دقق النظر في عيني والده الذي لم يكن مبتسمًا ككل الصور الأخرى، ورأى تلك النظرة التي كان يعرفها جيدًا، النظرة الحذرة المليئة بالخوف.

قال مخاطبًا نفسه وهو يركب سيارته:

ـ الله يرحمك يا بابا شكلك كنت بتخاف على عمي زي ما كنت بتخاف عليا بالظبط.

***

القاهرة (الستينات والسبعينيات)

توقف شكري أبوعيّاد أمام محل بيع الكاميرات في شارع الشيخ ريحان في باب اللوق، التقط نفسا عميقا يليق بتلك الخطوة التي اقترب من تنفيذها، ذلك الحلم الذي راوده صبيا لم يتجاوز العاشرة منذ وقع كتاب «أُسس التصوير الضوئى» لمؤلفه عبد الفتاح رياض بين يديه، حين كان والده يتولي عملية طباعة إحدى طبعاته الجديدة، وما تلاها من كتب لنفس المؤلف تحت عناوين «آلة التصوير»، «التحميض والطبع والتكبير»، «المرشد العملى للمصوّرين والسينمائين» وغيرها من الكتب المنشورة باللغة العربية حول التصوير، حين وجد نفسه للمرة الأولى في حياته متيمًا بشيء ما.

وداخل المحل أخرج تحويشة عمره التي جمعها من العمل خلف أستاذه مصوّر الفوتوغرافيا بين أفراح صوراها سويًا، ولياليِ قضاها بصحبته أو وحيدًا في الاستوديو حتى قرر العمل منفردًا بعد أن أتم الـ٢٧.

عاشقًا يستعد للاعتراف لحبيبته بسنين عشق طويلة، كانت من طرف واحد وحان الوقت لتصبح من الطرفين.

تذكر شكري ساعتها أن أستاذه نادي الأشقر وبّخه حين علم بعزمه على شراء كاميرا «مينولتا» موديل ١٩٧٣، وطالبه ببدء حياته بكاميرا

ذات إمكانيات أقل حتى يتمكن من تجهيز الاستوديو الخاص به دون أن يمر بضائقة مادية، بل وعرض عليه أن يعطيه إحدى كاميراته القديمة «Minolta SR-2» موديل ١٩٥٨، لكنه رفض الهدية متعللاً برغبته في أن يبدأ عمله حسب آخر مقتضيات التطور التكنولوجي في سوق التصوير.

ابتسم الأستاذ وربت على كتف مساعده الشاب، واخرج مبلغًا آخرًا من المال ووضعه في جيبه، وقبل أن يبدي شكري اعتراضًا أو يتساءل عن طبيعة أو سبب هذا المبلغ كان قد رحل بعيدًا بخفة حركته المدهشة التي حرص على تقليدها طيلة حياته بعد ذلك.

وفي خشوع راهب متبتل في أحد المعابد البوذية استلم شكري صندوق كاميرته الكارتوني الأبيض التي احتلت صورتها أحد جوانبه الخارجية، وحمله برفق وكأنه يحمل طفله الأول الخارج من غرفة الولادة إلى أحد أركان المحل ليختلي برفيقته الأولى ويطمئن عليها قبل مغادرة المحل.

أخرج شكري كاميرته من بين طبقات الفلين التي كانت تحميها، ابتسم وحملها بيده اليمنى وكأنه يزنها بميزان حسّاس، اتسعت الإبتسامة مع خفة وزنها التي بلغت ٣٦٥ جرامًا، قبلها في غفلة من صاحب المحل الذي التفت إلى بعض الزبائن ثم وضعها برفق على المنضدة وسط الفلين.

أخرج العدستين اللاتي كانتا بداخل الصندوق، وضع كل واحدة على حدة وأخرج الكتالوج المصاحب ليتأكد أنهما نفس العدستين، الأولى «M-Rokkor 40mm f:2»، والثانية «90mm f:4».

أعاد كل محتويات الصندوق إلى مكانها قبل أن يستعيد الكاميرا يطلب فيلما من صاحب المحل الذي ابتسم بدوره هو الآخر وكأن ابتسامة زبونه

تحمل من عدواها ما يفوق مقاومة إرهاقه اليومي وأخرج ثلاثة افلام «كونيكا» تم وضعها سويًا في عبوة بلاستيكية في عرض ما، وقال:

ـ الأفلام دي هدية مني ليك يا شكري.

التقط شكري العبوة وانتزع فيلمه الأول وهو يقول شاكرًا:

ـ أنا بحب «الفوجي» أكتر بس هديتك مقبوله يا أستاذنا.

وبمجرد أن احتضنت الكاميرا فيلمها الأول بعد ان التأمت بإحدى عدستيها، كان صاحبها على باب المحل حاملاً صندوقها الورقي، إلا أن صاحب المحل أسرع خلفه مستاء ليعطيه صندوقًا آخر أصغر حجما بكثير وهو يقول:

ـ الـ «Hot shoe» يا أفندي.

ضحك شكري بصوت عال لم يناسب هدوء تلك الليلة الشتوية في منتصف ديسمبر ١٩٧٥، التقط «فلاش» كاميرته الجديدة وأسرع الخطى تجاه ميدان الأوبرا.

وخلال سَيره في شارع الجمهورية وفي الميدان ذاته أنهى شكري فيلمه الأول مصوّرًا المباني القديمة وتمثال «إبراهيم باشا» الشهير ثم قفز في المترو عائدًا إلى حي الزيتون، وهو يدندن جزءًا من أغنية «موعود» لعبد الحليم حافظ بصوت خافت قائلاً:

وابتدي ابتدي ابتدي المشوار.. وآه يا خوفي من آخر المشوار

جنة ولا نار آه يا عيني.. رايح وانا محتار آه يا خوفـــي

واتقابلنا..والحياة قدام عينينا حلوة واتقابلنا..والكلام فوق الشفايف غنوة

كل حاجة فكرت فيهـــا في لحظة واحدة رديت
عليهـــا
بنظـــرة حلـــوة من عينيهـــــا
الأمان في عينيهـــا.. حسيت إني عديت للأمان في
عينيهـــا

* * *

قرأ عيد في القنوت وردد خلفه شكري قبل التكبيرات:

«يا إلهي هذا عبدك وابن عبدك الّذي آمن بك وبآياتك وتوجّه إليك منقطعًا عن سواك. إنّك أنت أرحم الرّاحمين. أسألك يا غفّار الذنوب وستّار العيوب بأن تعمل به ما ينبغي لسماء جودك وبحر أفضالك وتدخله في جوار رحمتك الكبرى الّتي سبقت الأرض والسّماء. لا إله إلاّ أنت الغفور الكريم».

وبعد إعادة التكبيرة السادسة بقول: إنا كلٌّ لله صابرون.

حمل المعزون النعش وغادروا المسجد خلف الشاب الصغير والمراهق الذي أمهم داخل بيت العائلة في صلاة الجنازة تجاه مقابر البساتين.

وبعد انتهاء مراسم الدفن اصطحب شكري صاحب الاثنتي وعشرون عامًا أخاه الأصغر صاحب السبعة عشر عامًا إلى أحد مطاعم السمك في منطقة باب اللوق، ألح عليه بالطعام لكن عيد اكتفى بالبكاء فقط انسلت الدموع من عينيه دون صوت، حتى لملم أخوه الأكبر الطعام وطلب من العامل وضعه في كيس بلاستيكي ليأخذه إلى المنزل، وخلال ٣ أيام عجز عن استنطاق كلمة واحدة من أخيه الباكي، كان يعلم جيدًا

تلك العلاقة الخاصة بينه وبين والده الراحل، وأنه تأثر كثيرًا بفراقه، وكان يخشى عليه من تأثير هذا الفراق، وفي النهاية اضطر شكري إلى أن يعود إلى عمله خلف أستاذه المصوّر نادي الأشقر حتى يستطيع أن يجد مصروفًا للبيت مع رحيل والده دون أن يترك خلفه سوى تلك الشقة الصغيرة في حي المطرية التي كان إيجارها الشهري أربعة جنيهات، وبعض الأثاث المتهالك بفعل الزمن عقب رحيل والدتهم أثناء ولادة عيد منذ سبعة عشر عاما تاركة هذا الأثاث عرضة لـ٣ رجال يعيشون فيه فسادا حتى عام ٧٠ حين توفى والدهم.

لم يطل الصمت بـ «عيد» وخلال أسبوع كان قد عاد مرة أخرى للمطبعة التي كان يعمل فيها الوالد الراحل لمواصلة العمل.

عادت الحياة إلى طبيعتها رويدًا رويدًا بين الأخين، حتى أنهما اتفقا دون أن يتبادلا الكلام على أن يذهبا إلى السينما مرة واحدة أسبوعيًا كل يوم سبت، استغلالاً لأجازة المطبعة وندرة أفراح يوم السبت في مصر.

كان يعلم أن عيد يعشق التمثيل والفن وقراءة الروايات، لهذا كان حاله يتبدل تمامًا عقب الخروج من دار العرض، يناقش الفيلم ويعيد تمثيل بعض مشاهده ضاحكا مع شكري الذي كان يستمتع للغاية بفرحة أخيه البادية على وجهه.

وفي أول كل شهر كان حريصًا على أن يُخرج بعضًا مما اقتصده من راتبه و«البقشيش» طيلة الشهر ليشتري لأخيه بعض الروايات التي يأتيه بها صديق في محل مجاور لاستوديو أستاذه في حي حدائق القبة، وهو الهدية التي كان عيد يتلقاها في سعادة بالغة، لدرجة أنه كان يصر على أن يبقى شكري جالسًا في هذا اليوم أمام شاشة التليفزيون حتى يعد له الطعام على طريقته الخاصة.

* * *

وكان باب شقتهما لا يجد طارقًا بعد محصل فاتورة الكهرباء والزبّال سوى جارتهما العجوز الحاجة أم سيد، التي كانت حريصة على أن تعد لهما كل يوم جمعة فرخة مشوية يتناولاها مع الأُرز المعمر وطبق الملوخية التي كانت رائحة تقليتها تملأ العمارة معلنة اقتراب موعد الوجبة.

كان شكري لا يناديها سوى بـ«أمي»، بينما كان عيد يتمتم قائلاً «حاجة أم سيد» دامجًا الحروف لتخرج كلمة مبهمة بفعل الخجل، وكانت المرأة حريصة على السؤال يوميًا عليهما، ومعها ابنها سيد الذي يعمل محاسبًا بأحد البنوك الحكومية والذي كان يزورها مرتين أسبوعيًا، وحيدًا يوم الأحد ويوم الجمعة مع زوجته وأبنائه. كان عيد يحب سيد بشكل خاص، لأنه كان يحب القراءة وكثيرًا ما تناقشا في العديد من الروايات التي تبادلاها سويًا، ولم ينس عيد نهائيا أن سيد حمل الخشبة التي ضمت والده على كتفه حتى استقرت في القبر، ولم يغادرهما لحظة طيلة مراسم وداع والدهما، كان يعتبره أخًا حقيقيًا خاصة مع حنان والدهما، بينما كان شكري يراه دائما رجلاً يعتمد عليه، وكان حريصًا على أن يستشيره في كل خطوات حياته احترامًا لعشر سنوات فارق عمري بينهما وكونه يراه رجلاً ناجحًا في حياته نجح بعد عدة سنوات من العمل في شراء شقة والزواج واقتناء سيارة ١٢٨.

وكان سيد يعاملهما دائما كأخين أصغر منه وكان حريصًا على متابعة حياتهما العملية وإرشادهما ومساعدتهما كلما استطاع ذلك. وكان الطارق الآخر على الباب هو الحاج «عربي» صاحب العمارة التي يسكنان فيها، ذلك الرجل الذي تخطى الستين من عمره، وخرج على المعاش بعد أن كان موظفًا في هيئة البريد، والذي كان صديقًا لوالدهما، وأول من اصطحبهما صغيرين إلى حديقة الحيوانات بصحبة ابنته «نورا» التي

كانت تكبرهما بخمس سنوات، والتي حضرا فرحها قبل وفاة الوالد بـ٣ سنوات، وأصر شكري على أن يقوم بتصويره منفردًا للمرة الأولى عقب عمله لمدة عام واحد فقط خلف المصوّر نادي الأشقر، واعتبر ذلك التصوير هديته للعروس التي كان يعتبرها أخته الكبرى.

كان الرجل حريصًا على أن يصطحب الخادمة التي تقيم معه لترعاه إلى شقة الشابين في غيابهما لتنظيفها وغسيل ملابسهما، بعد أن بقي معه مفتاح الشقة الذي أعطاه له والدهما احتياطيًا ليبقى معه، وكان يرفض تمامًا أي محاولة من الشابين لدفع الإيجار قائلاً: مش حاخد منكم إيجار، لحد ما واحد فيكوا يتشملل ويتجوّز في الشقة.

كان شكري يعتبره رائحة الوالد التي بقيت على الأرض، بينما كان عيد يعامله بالاحترام اللازم لسنه ومكانته، لكنه كان يعتبر والده رجلا لا يمكن تكراره في الحياة. وفي نفس العام الذي ترك فيه شكري أستاذه المصوّر ليفتتح الاستوديو الخاص به في شارع سليم الأول بالزيتون، كان عيد ينضم إلى فرقة «المدبوليزم»، كان شكري سعيدا بأولى خطواته نحو الحلم، بينما كان «عيد» سعيدًا بإعادة اكتشاف الأب في شخص «عبدالمنعم مدبولي». حينها وعلى الرغم من بداية نجاح كل واحد منهما، اتسعت الفرقة، حتى سهرة السبت في السينما صارت بعيدة، وصار لقاء الأخين النادر على الإفطار في صباح يوم الثلاثاء لا تدور فيه سوى أحاديث جافة معتادة حول كيفية العمل وحال الصحة والأخبار الجيدة.

وهو ما بدا واضحًا في علاقة الأخين لدرجة أن الحاج «عربي» نصح شكري بالاقتراب من أخيه، وأنه الأكبر وله في ذمة والده الراحل وصية حماية أخيه، وهو ما دفعه لزيارة عيد في المسرح ذات ليلة، ليبدأ مشوارًا جديدًا في حياته العملية.

* * *

ارتدي شكري تلك البدلة التي يحضر بها حفلات زفاف الفنادق ذات النجوم الخمس، صفف شعره أمام المرآة بعناية، وتأمل ملامحه قليلاً، ذلك الشعر الأسود الناعم الكثيف الذي كان يفضل تصفيفه على طريقة المطرب «ألفيس بريسلي»، وزوج الحواجب الهلالية الكثيفة التي شكلت مع عينيه الغائرتين قليلاً بسوادهما الشديد وضيقهما سمتًا يشبه المرضى أو المصابين بالشحوب، وتلك الأنف الصغيرة التي ورثها عن والدته، بينما كانت شفتيه الرفيعتين تؤكدان عصبيته الواضحة خاصة خلال العمل.

أشار لسيارة «تاكسي» لتوصله إلى مقر المسرح في شارع عماد الدين حيث تعرض مسرحية «نمرة ٢ يكسب».

أظهر بطاقته لحارس باب الممثلين طالبًا مقابلة عيد أبو عيّاد ملقن الفرقة قبل بدء المسرحية بحوالي ساعة، أدخله الحارس بعدما استأذن ليجد أخاه ينتظره على أول السلم، احتضنه حضنًا دافئا وعلى وجهه ابتسامة عريضة كأنه لم يره منذ فترة طويلة، اطمأن شكري لتلك المقابلة وتحرك مع أخاه الاصغر للبوفيه لتناول مشروبًا ساخنًا، وفي الطريق فرقع عيد بإصبعيه صارخًا: عندي فكرة، تعالى معايا.

وقبل أن يسأله شكري عن وجهتهما وفي ماذا يفكر كان عيد يطرق باب غرفة زين بنجمة حمراء كبيرة، وخلال ثواني وجد شكري نفسه وجها لوجه أمام الفنان عبدالمنعم مدبولي.

ابتسم مدبولي عند رؤيته لعيد وتساءل وهو يتناول كوب من الشاي:

ـ أهلاً ياعيد ازيك، خير يا ابني؟

أشار عيد إلى الكاميرا المعلّقة في صدر أخيه، والتي اصطحبها شكري بحكم العادة ورغبة في اضفاء «برستيج» ما على شخصه أثناء زيارته

لأخيه:

ـ شكري أخويا ياأستاذنا، مصوّر مفيش زيه، جبته يصورك.

ابتسم مدبولي وهو يرتشف شايه بهدوء وقال موجهًا الحديث لشكري:

ـ وياترى شاطر ولّا زي أخوك؟

ارتبك شكري ولم يجد ردًا، لكن عيد ابتسم ودفعه دفعًا ليخرج كاميرته من جرابها وهو يقول:

ـ ده الكبير يا أستاذ، أشطر مني بكتير.

وخلال دقائق لم يعرف كلاهما كيف مرت كان شكري قد اندمج في تصوير الأستاذ الذي اصطحبه بعدها في طريقه للاطمئنان على وصول بقية الممثلين للمسرح إلى غرفة الفنان محمد عوض الذي شاركه بطولة نفس المسرحية، ليلتقط له شكري أيضًا بعض الصور قبل أن يطلبا منه البقاء في المسرح لمشاهدة المسرحية وتصوير بقية نجوم الفرقة.

وقبل رفع الستار كان شكري قد التقط لأخيه بعض الصور داخل الكمبوشة، قبل أن يستقر داخل الكواليس لمشاهدة المسرحية.

وبعد تصوير كلا من محمد رضا والسيد راضي وميمي جمال مع عبدالمنعم مدبولي ومحمد عوض، غادر شكري المسرح بصحبة أخيه الذي أصر على أن يعزمه على العشاء عند «الرفاعي» في السيدة زينب، مع وعد بالعودة في الليلة التالية لتسليم الصور للفنانين.

لم يعد شكري مع أخيه للمنزل عقب العشاء لكن إلى الاستوديو الخاص به مع شورق الشمس، وسريعًا دخل إلى غرفة «النيجاتيف» لتحميض الصور وتجهيزها للتسليم مساء نفس اليوم ومع طغيان الضوء

الأحمر داخل الغرفة صمت النهار الذي كان قد ولد وأخرج فيلمه بهدوء وحرص شديدين وكأنه يفعلها للمرة الأولى ليضعه في «ديفولبر» بعد وضع المحلول ويرجه بالعدد ناظرًا إلى ساعته في تركيز شديد، قبل أن ينقل الفيلم إلى «الفيكسر» ويبدأ في ضبط «كونتراست» الصور وتبهيته على الورق داخل محلول «الفيكسر»، وما إن بدأت الصور في الظهور أمام عيني شكري حتى ارتخت شفتاه اللاتي ضمهما من فرط التوتر وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه انتظارا لظهور بقية الصور.

وبعد أن اطمأن لنتائجه بدأ في تعليق الصور على الحبال بالمشابك الخاصة وتركها لتجف، ثم ارتمى على مرتبه اسفنجية صغيرة في أحد أركان الغرفة ليحصل على قسط صغير من النوم.

وفي المساء كان يجتاز بوابة الممثلين في المسرح وهو يعلّق يده اليسرى في يد أخيه الأصغر بينما وضع الصور داخل عدة مظروفات ملونة عليها اسم الاستوديو الخاص به وعنوانه لكل ممثل على حدة، وبعد الاستئذان لتوزيعها، غادر المسرح مسرعًا خوفًا من انتظار النتيجة، وداخل الاستوديو الخاص به بقى يستقبل زبائنه وعينه على باب الاستوديو قائلاً لنفسه:

ـ لو عيد جه يبقى الصور عجبت النجوم، لو مجاش يبقى ياخيبتك يا شكري.

وبعد أن دقت الساعة الثانية عشر تذكر شكري للمرة الأولى أن أخاه لن ينهي عمله قبل الثالثة صباحا وبالتالي يستحيل أن يزوره في الاستوديو، فأغلق محله بهدوء وغادر إلى المنزل منتظرًا أخاه أمام شاشة التليفزيون وفي رأسه ألف سؤال وسؤال.. وبعد شهور كانت صور شكري أبو عيّاد معلّقة على بوابات ومدخل مسرح «بيرم التونسي» في

الأسكندرية خلال موسم العرض الصيفي للمسرحية، وبعد ٣ سنوات كانت صوره أيضًا في كل إعلانات جرائد مسرحية «مع خالص تحياتى» وبالحجم الحقيقي للأبطال على مدخل قاعة المسرح بعد أن تم اعتماده رسميًا مصوّرًا لفرقة «المدبوليزم».

* * *

القاهرة ٢٠١٣

حاول أيمن الاتصال بـ«جين» مرة اخرى لكنه وجد هاتفها مغلقًا، قرر الجلوس في أحد بارات مصر الجديدة بدلاً من الذهاب إلى وسط البلد، تذكر حسن مساعد والده فجأة، بحث عن رقمه في سجل هاتفه ثم اتصل به طالبا منه أن يلاقيه على ناصية شارع «العزيز بالله» بعد ربع ساعة. وجده أيمن في الموعد مبتسمًا بلا أي سبب، أشار له كي يركب، فقفز في السيارة قائلاً:

ـ على وسط البلد إن شاء الله.

ضحك أيمن وهو يهز رأسه يمينًا ويسارًا:

ـ لا مش وسط البلد، شكلك عجبتك البيرة يا حسن.

اتسعت ابتسامة حسن وهو يقول:

ـ دماغها حلوة ياكبير.

ـ ماشي ياعم، حنقعد في روف فندق "الحرية" نضرب ازازتين.

وداخل بار خشبي عتيق، خفتت اضوائه وازدحم بالعدد القليل الجالس بداخله، وعلى أغاني متنوعة لمحمد منير واحمد منيب ومدحت صالح، جلس الثنائي على منضدة مطلة على شارع الحرية في مصر

الجديدة، يتأملان من أعلى حركة المرور فيه.

قطع أيمن الصمت الذي صاحب الزجاجة الأولى مناديا النادل من أجل زجاجتين جديدتين من "ستلا" وطبق آخر من الترمس.

ظهرت السعادة على وجه حسن الذي كان يشرب ثمالة زجاجته الأولى، واتسعت ابتسامته.

قال أيمن دون أي تفكير: احكيلي حاجة عن أبويا ياحسن.

اندهش حسن من طلب أيمن، لكنه اعتدل في مقعده، ثم لمس وجهه بيده وكأنه يعدل من وضع ملامحه ليقلد أستاذه قائلاً بصوت أجش غير صوته:

ـ أول حاجة لازم تتعلمها ياحسن إنك تقرا الناس من عيونهم، المصوّر الشاطر يابني لازم يفهم زبونه من نظرة عينيه، كمان من قعدته، ولو حس وفهم إنه متوتر لازم يفكه، يضحكه بنكتة ولّا إيفيه، إن شالله يتكعبل قدامه علشان يبتسم المهم الزبون يفك ويرتاح، ساعتها بس تقدر تصوره والصورة تطلع حلوة، أوعى تستسهل يا ابني في صورة وتطلعها وحشة.

أنهى الاستاذ شكري أبو عيّاد كلامه في الفاصل بين زبونين حضرا للحصول على صورة لجواز السفر، ابتسم الزبون بمجرد رؤية كاميرا التصوير المثبتة على «الترايبود» المعدني وتوقف متسائلاً:

ـ إيه ده يا عمنا أنت معندكش كاميرا ديجيتال؟

عبس وجه شكري أبو عيّاد لدرجة اقسم أني لم أره غاضبًا مثل تلك المرة، ثم أشاح في وجه زبونه للمرة الأولى في حياته وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ حضرتك تقدر تروح أي ستوديو من بتوع شوف الصورة الأول قبل ما تتصورها، أي عيل صغير يقدر يصورك صورة لباسبورك تسافر بيها، أنت جيت لوحد غلط، أنا مصوّراتي مش ماكينة تصوير.

اندهش الزبون وقال خجلاً من سن الرجل وانفعاله:

ـ أنا آسف يا حاج بس أنا فعلاً مستعجل على الصور.

اختطف شكري الكاميرا من على حاملها ونظر في عدستها لعيني الرجل قبل أن يقول:

ـ في ستوديو في شارع نصوح ديجيتال، حيسلمك الصور كمان ساعتين.

ثم مد يده مسلمًا على الزبون ليرحل بعدها.

انشغل شكري في إعادة تثبيت الكاميرا مرة أخرى بينما تسائلت في حذر:

ـ ليه يا أستاذ؟

ـ الكاميرا مبتكدبش ياحسن، مراية بتكشف شخصية اللي قدامك، بلورة سحرية بتظهر الأرواح، وده بني آدم ميستهلش تخلده الكاميرا بتاعتي.

ثم أشار لي لضبط أوضاع لمبات الإضاءة وتنظيف تلك الخلفيات التي لم يعد يستعملها كثيرا والتي حملت مناظر طبيعية وألوان مختلفة، وكذلك إعادة كي بعض الملابس التنكرية التي مازال البعض يستخدمها في صور خاصة طريفة وهو يقول لنفسه محاولا ألَّا أسمعه:

ـ الله يخرب بيت الديجيتال خرب الصنعة وخللى اللي ليه فيها واللي مالوش بقى مصوّراتي، أيام غبرة خلت الفن بقرش تعب وفدان تكنولوجيا.

* * *

عاد أيمن إلى والدته بعد جلسته مع حسن، حرص على أن يحمل معه بوكيه من الورد الأبيض ونصف كيلو من الكباب من "صبحي" الحاتي، ابتسمت والدته عندما فتحت له الباب، اشارت له أن يضع كل شيء ويتركها قليلاً حتى تعد العشاء وتنسق الورد، مشيرة إلى غرفة نوم والده:

ـ خش اختار جلابية من بتوع أبوك البسها بدل ما انت صاحي نايم بهدومك.

تذكر أيمن للمرة الأولى أنه لم يستحم أو يغير ملابسه منذ حضر إلى والدته قبل يومين، فتح دولاب والده في حرص شديد، مرر يده بهدوء على الملابس وأغمض عينيه، استنشق رائحة والده العالقة في الدولاب، قبل أن يسحب جلبابا، ويجري نحو الحمام من أجل «دوش» سريع.

وعلى مائدة فاخرة أعدتها والدته، وسط زوجين من الشموع الكبيرة أضاءا المنضدة بعد أن أطفأت النور، قالت وهي تناوله أحد الأطباق الصينية التي لا تخرجها سوى في العزومات:

ـ ده كان عشايا الاسبوعي أنا وأبوك، وكمان في المناسبات.

ابتسم أيمن وهو يقبل يد والدته الممتدة له بالصحن:

ـ ده انتو حبّيبة جامدين بقى.

صبغ الخجل وجه والدته قبل أن ترد بتلعثم:

ـ تسمع بقية القصة النهاردة، ولّا بكرة لما تصحى؟

التقط أيمن قطعة من اللحم وتناولها هو يقول قبل أن يبتلعها:

ـ أنا جعان للقصة أكتر من الأكل.

* * *

بيروت ١٩٨١

لم تعد «نورسين» إلى رشدها إلا داخل مستشفى صغير في بيروت، بكت كثيرًا ولم تدرك إلا بعد ثلاثة شهور قضتها في مصحة نفسية في لبنان أن والدها دفع رشوة كبيرة لتهريبها من السجن، وأن الأطباء أجروا لها ثلاث عمليات لمعالجة التشوه في الفرج إثر قرض الجرذان، وأنها وناجي تم تهريبهما عبر الحدود مع العراق ضمن مجموعة لم تتجاوز العشرة أفراد داخل خزان مياه، وأن عملية التهريب كلفت أبوها ثروة طائلة وضعته في مأزق مالي في بيروت.

وقبل أن تستعيد عافيتها فارق الأب والأم الأسرة في بدايات عام ٨١ في حادث سيارة، غادرت المشفى بعدما توقف مهدي عن دفع التكلفة الشهرية، خرجت مطرودة تبحث عن ناجي.

وعندما فقدت الأمل داخل بلد غريب عنها ذهبت إلى مهدي الذي استقبلها بفتور واضح في شقته الصغيرة في أحد ضواحي بيروت قائلاً:

لم يترك والداك شيئًا، وكأنهما قررا الخلاص من إفلاسهما وماتا، بينما أدمن ناجي واختفى، كعادته دائما يعجز عن اتخاذ القرار الصحيح، وأنا أعمل ما يقرب من ثماني عشر ساعة يوميا حتى يمكنني البقاء حيًا داخل بلد لا أنتمي إليه، وعليكِ أنت أيضا البحث عن عمل وتكوين حياة، في الغربة لا تحاولين الاعتماد على أحد.

ثم فتح لها زجاجة مياه غازية وقدمها على صينية نحاسية، أدركت «نورسين» أن أخاها الأوسط حريص على معاملتها كالأغراب، ارتشفت رشفة من الزجاجة ثم سحبت علبة سجائره وأشعلت سيجارة ونفثت الدخان بقوة وكأنها تنفث داخلها.

ارتدى مهدي جاكيت وحمل حقيبته وأقترب منها قائلاً:

ـ أنا في طريقي للمستشفى، أتحبين أن أوصلك لمكان ما؟

ودون أن ترد كانت معه في الشارع، وضع في يدها كل أوراق إقامتها داخل لبنان ومائة دولار وتركها كفتاة ليل قضى منها وطره على ناصية أحد شوارع بيروت الهادئة حتى دون سلام.

لم تدرك «نورسين» لحظتها لماذا رأت أخاها على هيئة فأر، وفي برد ليل بيروت الشتوي سارت دون هدى لثلاث ساعات كاملة، وأمام إعلان معلّق على حائط قديم يطلب مترجمين باتت ليلتها واقفة تحفظ العنوان.

وعلى الرغم من الرعدة التي سرت في جسدها بفعل البرد، كان خدرًا عجيبًا ينتشر في جسدها يعزلها عن العالم الخارجي، ومع إشراق الشمس كانت تشرب كوبًا كبيرًا من القهوة في أحد المقاهي قبل أن تستقل تاكسي إلى العنوان الذي حفظته عن ظهر قلب.

وداخل مكتب صغير طليت حوائطه باللون الأبيض واحتلت أركانه الأربعة مكاتب صغيرة جلست «نورسين» تملأ استمارة تقدمها لشغل الوظيفة، ثم توقفت كثيرا عند خانة العنوان.

أكملت الاستمارة وأسعفها التفكير إلى كتابة العنوان المدون على بطاقة إقامتها والذي كان مسكنًا لوالديها قبل الرحيل، وبعد ساعة كانت تجري اختبارها الأول أمام أحد المترجمين المعتمدين، وبعد دردشة قصيرة باللغة الإنجليزية حول ظروف انتقالها للعيش في لبنان ومغادرة إيران، حرصت خلالها على رواية القصة وكأنها انتقلت إلى بيروت بصحبة والدها منذ البداية، وبعد اختبار تحريري، غادرت المكتب متجهة إلى حارة «حريك» حيث يقع المركز البهائي في بيروت، وخلال سويعات قليلة كان

المسؤولون قد نجحوا في تدبير سكن مؤقت لها في بلدة «مشغرة» البقاعية حيث تعيش أغلب العائلات البهائية.

وبمجرد استلامها العمل كانت «نورسين» عند الكوافير قصت شعرها للمرة الأولى في حياتها، صبغته باللون الأحمر، وغادرت المكان لتشتري أول علبة سجائر، دخنت سيجارتها المارلبورو الأحمر الأولى بهدوء محترف تدخين، واستمتاع متشوق له.

تجولت في المدينة، كانت دائما ترى ملامحها بلاستيكية، تعيش فيها رائحة الموت الخانقة واللحم المتعفن والزعتر، كانت تراها مدينة الطيور المذبوحة، وعندما تغمض عيناها في الحافلة كانت ترى «تبريز».

لم تكن يومًا منصفة في المقارنة كانت تدرك جيدًا أنها تغيرت لكن وطنها لم يتغير وهي الآن مغتربة بعيد عنه، والغربة كثيرًا ما تحرمنا من حاسة التذوق.

وخلال عام عملت فيه «نورسين» بكل طاقتها في ترجمة الأفلام الأجنبية داخل مكتب الترجمة الذي عملت فيه كان بحثها عن ناجي لا ينتهي، تعرفت على البلد رويدًا رويدًا، وأتقنت التحرك فيها، تحاشت تمامًا كل ما يمت لمهدي بصلة حتى عندما دعاها لحضور خطبته اكتفت بإرسال باقة من الزهور دون الحضور. لم تزُر قبر والديها أبدًا، فقط حاولت الحصول على صورة لهما، راسلت أصدقائها القدامى في إيران، اضطرت إلى زيارة مهدي في مستشفاه، حتى حصلت على واحدة كبرتها ووضعتها داخل إطار خشبي وعلّقتها في غرفتها التي تقطن فيها في البقاع. لم تتأثر كثيرًا بأحداث الحرب الأهلية الدائرة في لبنان، كانت تغرق في العمل، كانت أصوات الانفجارات تبقى عاجزة أمام صرخات زملاء الزنزانة في طهران.

لم تنحاز إلى جانب، كانت تدرك أنها دولة وحدها داخل تلك الدولة، فقط علمتها الحرب كيف تنتقل جيدًا بين الضواحي حتى لا تقع فريسة خطأ جندي غاضب، كانوا يعتبرونها شيعية مثل كل البهائيين في لبنان، لكنها لم تناقش هذا الأمر أبدًا، توقفت تقريبًا عن الصلاة والقراءة في الكتاب «الأقدس».

لم تقم أي صداقات لدرجة أنهم أطلقوا عليها في المكتب لقب المرأة الصامتة، بينما ظلت العائلة التي تستأجر غرفة في منزلها تعاملها على أنها امرأة مكلومة فقدت عائلتها في بلاد غريبة، فلم يحاولوا التدخل في حياتها واحترموا صمتها، كانت تسليتها الوحيدة هي مشاهدة الأفلام التي تترجمها وبعض العروض الموسيقية والمسرحية، وخلال عرض مسرحية «الواد النمس» في بيروت في يناير ٨٢ تعرفت على شكري أبو عيّاد، ذلك المصوّر الذي حضر خصيصا من القاهرة مع مخرجها عبدالمنعم مدبولي لتصويره.

وبحكم عملها داخل مكتب ترجمة ضمن شركة متخصصة في العروض السينمائية والمسرحية نظمت ذلك العرض الذي استمر لثلاثة أيام، كانت ضمن فريق الترحيب الذي صاحب الوفد على العشاء في ليلته الأولى في بيروت، وبعد عبارات الترحيب الجافة المتبادلة في مثل هذه المناسبات، أنهت «نورسين» دورها وغادرت مسرعة.

وفي الصباح كانت تلتقي بشكري للمرة الثانية داخل المقر البهائي في حارة حريك، اندهشت للغاية عندما أدركت أنه بهائي، ابتسم عندما رآها وقال قبل أن يلقي عليها التحية:

ـ الكاميرا بتحبك، وأنا بصورك امبارح كنت عارف إني حشوفك تاني.

ابتسمتْ في خجل وقالت:

ـ صباح الخير يا مصري.

ـ شكري.. شكري أبو عيّاد.. مصوّر.

مدت يدها لتصافح يده وداخل المقر دار بينهما حوار طويل، روت فيه دون أن تعلم سببًا لذلك قصتها كاملة للرجل المصري بحكم الراحة في الحكي مع الغرباء.

وقبل أن يغادرا المكان أصر شكري على دعوتها للغداء، وعلى مائدة الطعام كان يتأملها في هدوء وهي تكمل روايتها، والتي ما إن أنهتها حتى أخرج صورة لها مع عبدالمنعم مدبولي التقطها لها بالأمس ولم ينم قبل تحميضها وطباعتها فابتسمت حين شاهدتها، قام واقترب منها ونزل على ركبتيه قائلاً:

ـ تتجوزيني يانور؟

عقدت المفاجأة لسانها وانتفضت مغادرة المطعم وسط ضحكات بعض الجلوس، لملم شكري نفسه الخجلانة ودفع الحساب وغادر متجهًا إلى مقر المسرح الذي تقيم عليه الفرقة عروضها، ولم يرها مرة ثانية حتى غادرت الفرقة لبنان، إلا أن الخطابات لم تنقطع بينهما حتى يونيو ١٩٨٢ حين غزت اسرائيل لبنان وفي غضون بضعة أيام استولت القوات الإسرائيلة على مدن الجنوب الهامة مثل صور وصيدا، لتدخل بعد ذلك بيروت الشرقية بدعم ضمني من القادة والميليشيات المارونية.

لتجد «نورسين» نفسها بلا عمل بعد هروب صاحب الشركة وتوقف كل النشاطات الفنية نهائيًّا في بيروت، دون أن تفكر كانت على أول طائرة إلى القاهرة، ظلت خلال الرحلة تعيد قراءة خطابات شكري

ونسخة من خطاباتها التي أرسلتها ردًا عليه، وحين كانت الطائرة تحط في مطار القاهرة لم يكن بين يديها سوى صورة أخرى أرسلها لها شكري لهما سويا بجوار الفنان محمد نجم في ليلة تعارفهما، وفي المطار أستقبلها شكري في سعادة غامرة قبل أن يصطحبها فورا إلى ميدان لاظوغلي حيث مقر وزارة العدل لعقد القران.

* * *

القاهرة ٢٠١٣

أنهيا عشائهما وغادرا الصالة بعد إعداد الشاي إلى غرفة النوم أخرجت «نورسين» حقيبة جلدية عتيقة من دولاب غرفة نومها الخشبي الأبيض، احتضنتها للحظات قبل أن تتحرك في اتجاه ولدها الجالس على الفراش.

أخفى أيمن ابتسامة ظهرت في عينيه بسبب تعامل أمه الرقيق مع الحقيبة لكنه اعتدل بمجرد اقترابه وساعدها على الجلوس أمامه، فتحت الحقيبة بهدوء من يجتاز عتبات مقدسة، وأخرجت لفة من الخطابات الورقية التي اصفر لونها بفعل الزمن، فكت رباطا قماشيًّا ورديًّا أحاط بها، وبمنتهى الهدوء ناولته خطابا منهم ليقرأه، وقبل أن يبدأ قالت في حسم:

ـ اقراه بصوت عالي.

ابتسم أيمن وبدأ في قراءة الخطاب:

ـ أعرف أنك لا تصدقين، تستغربين رجلاً طلب منك الزواج في اللقاء الأول، رجلاً أراد أن يشاركك روحك حتى قبل أن يعرفك.

ـ لك كامل الحق في ارتيابك وارتباكك وخوفك، لكنني ياعزيزتي

«نورسين» أعمل مصوّرًا، ومن يمتهن مهنتي تختلف عيناه عن باقي البشر، تصبح أشبه بميكروسكوب للأرواح، أستطيع بها النفاذ إلى داخلك واكتشاف الحقيقة.

لم تأتِ العبارة الأخيرة منه بل منها، اندهش أيمن لأن والدته تحفظ الخطاب عن ظهر قلب وتردد معه أجزاء كاملة دون خطأ واحد، توقف عن القراءة فأشارت له أن يستمر:

ـ ربما لأننا معشر المصوّرين لا نحب الصورة الرديئة، والإنسان إذا لم يكن سعيدًا لحظة التصوير غالبًا ما ستكون صورته سيئة مهما أضفنا لها من رتوش وبذلنا مجهودًا.

ـ منذ لحظة جلوسه على المقعد أمامي، على عيناي أن تخبراني به وبحالته وبكينونته، ومع الخبرة شيئًا فشيئا بدأت أرى روحه.

ـ أما أمامك فلم أرى سوى روحًا تشبهني، أعرفها وكأنها كانت يوما قطعة من روحي، شفافة طاهرة نقية مثلما حلمت دائمًا.

ـ ساعتها وقبل أن أطلبك للزواج بلحظات سألت نفسي سؤالاً واحدًا، هل تشعر بالراحة؟، وجاءني الجواب: بل سعيد.

ـ لا أدعي أني غارق في حبك، لكني قادر على التنبوء بالحياة غارقًا في حبك مستقبلاً، في أن أهبك ميناء للراحة والحب لم ترسو سفينتك عليه منذ ولدتي.

ـ عزيزتي نورسين مازال عرضي للزواج قائما لكني لن أذكره ثانية في خطاباتي القادمة..في انتظار خطابك على أمل اللقاء.

ظلّت عينا أيمن ملتصقة بالخطاب بعد انتهاءه حتى سحبته منه والدته برفق وأعادته في حنو بالغ إلى داخل المغلف وضمته بالرباط القماشي

الوردي وأعادته إلى الحقيبة، ثم نظرت لأيمن الذي ركز بصره على عينيها وقالت:

ـ أبوك كان أحسن راجل في الدنيا، وعيِّشني سعيدة لحد ما مات.

قاطعها أيمن بغضب:

ـ بس أنا شفته بيخونك مرة أو اتنين، مش فاكـ..

وضعت «نورسين» يدها على فم ولدها حتى تمنعه من إكمال جملته وهي تقول:

ـ افهم بقى ياحمار، أبوك اتجوزني وأنا بعاهة وخلفناك بالعافية وبالصدفة، وزي ماحكيتلك قبل ما تشوف الجواب أنا مكنش ينفع أشارك راجل السرير، وده كان سبب رفضي الجواز حتى بعد ما جيت القاهرة، لكن أبوك عرف يحتويني ويملاني ويقنعني نتجوز.

اعتدلت «نورسين» في وضعها ومسحت دمعتين فرتا من عينيها لم يلحظهما أيمن ثم أكملت:

ـ ليلة الدخلة نزل يمشي ٣ ساعات بالبيجاما من كتر الخضّة وإحساسه بالعجز، بس لما رجع بعدها، كان راجع ببوكيه ورد ونص كيلو كباب وعلى وشه ابتسامة وكأن مفيش حاجة حصلت، زي ما أنت عملت دلوقتي.

امتدت شفة أيمن السفلى متسائلاً وقبل أن يتكلم أسكتته والدته قائلة:

ـ أنا وأبوك خلال ٢٧ سنة جواز منمناش سوا غير ٣ مرات يا أيمن.. حتى لو عمل حاجة كده ولَّا كده أنا فاهمة احتياجاته كبني آدم ومش حلومه، ومتفتكرش احنا كستات مش بنعرف في نفس اللحظة

اللي الراجل بيروح فيها بيته إذا كان نام مع واحدة تانية ولَّا لأ، بس أبوك لا عمره حَبّ عليا ولا عمل كده كتير، فهمت يا أيمن، فهمت؟

***

القاهرة (الثمانينات)

أتم شكري أبو عيّاد الرابعة والثلاثين من عمره، وتجاوزها بعدة أشهر، صار الزواج مطلبًا ضروريًا، تجاوز مرحلة الحلم المؤجل، والأولوية الثانية وصار ضرورة ملحة، لكن عملية البحث عن عروسة لم تكن تسير على ما يرام، كان يزعجه للغاية ذلك الإحساس الذي يسيطرعلى دائرته من المعارف بعد اغتيال الرئيس أنور السادات في حادث المنصة الشهير في أكتوبر عام ٨١، أن الإسلاميين المتشددين في طريقهم لحكم البلاد، إن لم يكن عن طريق كرسي الرئاسة ومقاعد البرلمان، عن طريق فرض العرف الحياتي اليومي المعتاد، من خلال مظاهر يتم تقديسها رويدًا رويدًا.

كان قد تحقق ماديًا ومعنويًا على الصعيد المهني، ونجح في دفع «خلو رجل» لشقة في شارع حسن خليل القريب من الاستوديو استعدادًا للزواج فيها، وصار ستوديو «اضحك الصورة تطلع الحلوة» مقصدًا لمعظم عائلات الحي، وصار اسمه يتردد في حفلات الزفاف كمصوّر الفنانين المعتمد الذي يشرف كل عرس.

لم يكل العمل يوميًا، كانت الكاميرا تشكل رفيقًا وزادًا للطريق، كان فقط كثيرًا ما يدون بعض ملاحظاته عن الأفراح في دفتر صغير يداعبه بالقلم خلال أوقات انتظاره جفاف الصور لتسليمها للعملاء.

كتب مرة بخط تأنق للغاية في رسمه: الأفراح في السبعينات موسيقى شعبية وفساتين قصيرة وباروكات مدورة، في التمنينات موسيقى شبابية

وفساتين طويلة ومن غير باروكات خالص وساعات بحجاب.

كانت رحلة لبنان التي وافق عليها الأستاذ مدبولي فرصة لشكري للسفر خارج مصر للمرة الأولى، اعتذر الكثيرون خوفًا من بوادر الحرب الأهلية التي ملأت أجواء بيروت لدرجة أنهم فكروا في إلغاء العرض، إلا أنه لم يتردد يومًا، بل أبلغ الأستاذ بقراره المساعدة في تجهيز أزياء المسرح.

وعلى متن الطائرة المتجهة لبيروت رأي شكري حلمًا لم ينساه أبدًا، رأي قبر والده الذي كان يزوره شهريًا بانتظام منذ وفاته قبل ما يقارب الاثني عشر عامًا ليدون عليه أحداث الشهر، كان يخجل من الكلام أمام القبر كما اعتاد ووالده حيًا، فكان يكتب على الأحجار مُغالبًا دموعه، أخبره أن عيد يعمل في نفس عمله في المطبعة، كتب له عن افتتاحه للاستوديو الخاص به، أخبره بدعاء الحاج «عربي» المستمر له ورفضه تحصيل الإيجار، كتب كل التفاصيل مما جعل عيد يسخر منه ذات يوم حين زار قبر والده في الذكرى السنوية، ولم يعره شكري اهتمامًا. رأي كل تلك الكتابات تتطاير في الحلم، رأي القبر وكأنه يدور حول نفسه بسرعة غير عادية تتطاير بسببها الحروف بعيدا، وحين استقر القبر فجأة كما دار فجأة، كان الوالد مبتسما وعلى جدرانه كتبت كلمة «مبروك» بخط كوفي أنيق.

ارتعد شكري وفتح عينيه ليجد عيد جالسا بجواره يقرأ رواية «الأوباش» لأديب اسمه خيري شلبي، ابتسم لاسم الرواية وذكرى الحلم الممتعة، ثم لكز أخاه بكوعه وهو يقول: شكلي حتجوّز قريب ياعيد!

ابتسم عيد وقال دون أن يرفع راسه عن الرواية: أنت حتتجوز على نفسك يا شكري.

ابتسم شكري وأغمض عينيه طلبًا للنوم والابتسامة لم تغادر وجهه بعد، وفي العشاء الأول في بيروت كان يتأمل مرافقة الفريق المسرحي اللبنانية، بملامحها الفارسية الجميلة، تلك العيون الواسعة السوداء التي تشكل مع الشعر الاسود بنفس درجة اللون والجبهة الهلالية شديدة البيض سحرًا لا يقاوم، وذلك الأنف الشامخ المرتفع الذي يليه زوجًا من الشفاة الوردية التي من فرط خشيتها رسمت شكل قلب طفل وليد.

لم تغادر عيناه وجهها طيلة العشاء، التقط لها عشرات الصور في خضم تصوير العشاء، تمكن من خلال الحوار الدائر من التقاط معلومة أنها إيرانية هاجرت بعد استيلاء الإسلاميين على السلطة، لم يعرف على وجه التحديد حين عرف ديانتها هل ابتسم لأنه تذكر الحلم، أم لأنه اعتبرها إشارة نادرة الحدوث.

في صباح اليوم التالي كانت قدماه تقودانه إلى المركز البهائي في حارة «حريك» وكانت هناك، وجد نفسه يقول دون تفكير في جرأة لم يعتدها مع الجنس الآخر: الكاميرا بتحبك، وأنا بصورك امبارح كنت عارف إني حشوفك تاني.

ابتسمت «نورسين» في خجل أقسم بعدها شكري لمن حكى لهم عن هذا اللقاء أن شمس الصباح خجلت من فرط ضوء الابتسامة وأن الزمن توقف في المركز البهائي لعمر تلك البسمة. تبادلا تحية الصباح وبحكم مقابلة غريب في مكان قريب لروحك نادرًا ما تلتقي فيه بأحد يمكنك الحديث معه، وبحُكم الإحساس بالقرب نتيجة وحدة الديانة حكت قصتها كاملة كما لم تحكها لأحد من قبل، اصطحبته من رحلتها في سهول إيران وجبالها إلى مطعم ساحلي في بيروت ليتناولا الغداء عندما طلب منها أن تصحبه ليعزمها على تناول الطعام.

أنهت حكايتها مع نهاية وجبتها، ثم شعرت بالخجل من عدم توقفها عن الحكي لما يزيد عن ثلاث ساعات، ابتسم لخجلها وهذا الصمت الذي فرض وجوده، وأخرج شكري صورة لصاحبته التقطها لها مع عبدالمنعم مدبولي في عشاء اليوم الماضي، لم ينم قبل طباعتها في أحد المعامل التي عرف طريقها عن طريق الفندق، انتظرها على أحر من الجمر، وكان حزينًا أنها لن تظهر على يده كبقية ما اعتاد من صور، لكن كل هذا تلاشى بمجرد ظهور ابستامة ساحرة على وجه «نورسين» فرحًا بالصورة.

وتماما كالمنوم مغناطيسيًا غادر شكري مقعده لينزل على ركبتيه قائلاً:

- تتجوزيني يا نور؟

انسحبت «نورسين» جارية وسط ضحكات الحضور بينما لملم شكري نفسه ودفع الحساب وأخرج صورة أخرى التقطها لها وحيدة في نفس العشاء وابتسم لها قائلاً وهو يغادر المطعم:

- حاتجوزك يا نور

***

عام بأكمله ما بين استعارة كل دواوين الشعر التي يمتلكها عيد أخوه، وتلك الصور المختلفة لـ«نورسين» التي احتلّت كل حوائط غرفته، وتلك الخطابات التي كان يكتبها أسبوعيا لحبيبته الفارسية التي تعيش في آتون حرب أهلية في بيروت، تغيرت شخصية شكري تمامًا، صار متابعًا جيدًا للأخبار السياسية وخاصة ما يخص الحرب في لبنان، هتف لأول مرة في حياته تسقط إسرائيل بعدما روت له في أحد خطاباتها ما تفعله القوات الصهيونية في بيروت.

اضطر لقضاء اثني عشرة ساعة كاملة في سنترال جسر السويس في منطقة التجنيد لإجراء مكالمة دولية يطمئن فيها على «نورسين»، التي اقتنعت بعد نقاش مطول استغرق العديد من الخطابات، وبعض المكالمات الدولية بالحضور إلى القاهرة من أجل الزواج.

أخبرته بعد سنوات أنها عشقت أسلوبه، واختياراته الشعرية التي كان ينهي بها كل خطاب، لكن أكثر ما أعجبها هي تلك الصور التي كان يرسلها برفقة كل خطاب للقاهرة، وعن عشقها فنه، وقُدرته على التعبير بالصورة.

لكنها لم تفهم ابتسامته عندما أخبرته أن أكثر صورة عشقتها كانت لميدان الأوبرا، تلك الصورة التي التقطها بكاميرته في يوم لقائهما الأول، حاولت فتح موضوع اغتصابها مرة أخرى خلال الرحلة من المطار إلى وسط البلد، وضع إصبعه فوق شفتيها وقال:

النهاردة يوم ميلادك من جديد، مصر مش بلد أنت مضطرة تقضي فيها وقت زي لبنان، انت خلاص في بلدك، مع حبيبك، اللي فات مش بس مات، لأ ده كان مجرد كابوس وانتي بتفوقي منه دلوقتي.

لم تجد مناصًا من الابتسام، ومراقبة شوارع القاهرة التي صوّرها لها كلها شكري وأرسل صورها، لم تشعر نهائيًّا بالغربة خاصة عندما اقتربت منها أنفاس شكري خلال رحلة العودة إلى حي الزيتون، ليقبلها في الطريق، شعرت للمرة الأولى برائحة شوارع «تبريز» تنفذ إلى صدرها.

***

في حضور الحاج «عربي» وابنته وزوجها الذين يستعدون للسفر إلى السعودية للعمل في إحدى شركات البترول، وأم سيد وولدها سيد، وصديقه الدكتور حمزة الذي كان يعمل حتى وقت قريب في أحد المحلات المجاورة للاستوديو، وبعض الأضواء الكهربية القليلة المعلّقة على مدخل العمارة احتفل الجمع الصغير بزفاف العروسين.

فقط في نهاية الليلة مال عيد على أذن شقيقه العريس ليقول:

ـ متنساش تكرر مراسم الجواز طبقًا لتعليمات البهاء يا شكري، خللي ربنا يباركلك في عروستك.

لم يعر شكري أخاه اهتمامًا، فقط لفت نظره تلك الفرحة الغائبة عن وجه سيد، الذي لم يقض أكثر من نصف ساعة وحاول الانسحاب بوالدته، لكنها أصرت على البقاء على أن تعود إلى منزلها مع عيد، وتعجب أكثر من مغادرته للاحتفال دون تحية العروسين، فقط صكت أذنه رغما عن الضجيج البسيط الذي صنعه جهاز كاسيت تغني فيه عايدة الشاعر إحدى أغاني الفرح قوله:

ـ استغفر الله العظيم.

اعتذرت أم سيد وهي تغادر محتضنة العروس بحنان أم حقيقية، وأشارت إلى جبهتها ساخرة وهي تحدث شكري:

ـ تقريبا يا ابني الزبيبة في القورة بتمسح الضي م القلب.

ضحك الجميع وغادروا العروسين قبل منتصف الليل بقليل، ودعهم شكري من شرفة شقته الواقعة في الدور الثاني، مانحا الوقت لعروسته في تغيير ملابسها.

وبمجرد اختفاء الجمع داخل إحدى سيارات الأجرة التي أحضرها

زوج بنت الحاج «عربي» أسرع شكري ليضع في الكاسيت شريطا لأم كلثوم تغني فيه «هذه ليلتي» وخلع بدلته على أنغام الأغنية بينما كانت خطواته الراقصة في الطريق لغرفة النوم تكاد تطير به من الأرض من فرط السعادة.

وأمام نورسين التي ارتدت قميصًا أهدته لها الحاجة «أم سيد» ليليق بليلة الدخلة، انحنى مقبّلاً يدها، سحبتها بسرعة وغادرت مكانها لتخفض صوت الكاسيت قليلاً وهي تقول:

ـ شكري اديني وقت أخد عليك أكتر من كده.

ارتدى شكري بيجامته، وأسرع ليكشف الغطاء عن ذلك العشاء الذي أعدته جارتهم العجوز، اشار إليه ضاحكًا:

ـ بمجرد ما ناكل جوزين الحمام دول ونص البطة دي، حنبقى خدنا على بعض تمام.

ارتفعت ضحكة «نورسين» عالية لتشكل مع عزف الفرقة المصاحب للأغنية ترنيمة ملأت روح شكري الذي احتضنها وأصر على إطعامها بنفسه.

وفي نهاية الليلة وعلى الفراش، لم يستطع الشاب الذي عانى حرمانًا جنسيًا لطيلة حياته من السيطرة على نفسه أمام رائحة بشرة زوجته ورفيقة الفراش، التي أشعلت لمسة فخذها لفخذه النار بداخله، قبَّلها في سذاجة عاشق لم يتعلم فن التقبيل، احتضنها بعنف تأوهت له، لم يشعر بنفسه خاصة مع ذلك الخدر الذي أدار رأسه من فرط الرغبة.

خلع قميصها، فاستسلمت له، لم يتمكن من رؤية ذلك الخوف في عينيها، وتقلص ملامح وجهها في هيئة الألم قبل حتى أن يلمسها.

خلع ملابسه واحتضنها أكثر، خفتت الأصوات تمامًا من حولهما عدا صوت أم كلثوم تردد:

يا حبيبًا قد طال فيه سهادي
و غريبًا مسافرًا بفؤادي
سوف تلهو بنا الحياه و تسخر
فتعالى...أحبك الآن أكثر

أفلتت صرخة خافتة من «نورسين» لكنه لم يسمعها، كان يستعد للتوحد معها، لاجتياز الباب الفاصل بين عذريته وسعادته، وشعوره بالإرتواء، ارتعدت بين يديه وانسحبت للخلف فسقط شكري على الفراش، اضاءت نور «الأباجورة» بغتة فاعتدل شكري مستفهمًا، رحل الخدر عن رأسه فجأة، حجبت عروسه موضع عفتها بيدها مما لفت نظره لتلك الحركة الخاطفة.

ظنها تتمنع فحاول الاقتراب مرة أخرى مُزيحًا يدها، صرخت وارتعدت ونبتت على عينيها دمعتين، توقف شكري بعد أن صدمته دموعها قالت بألم:

ـ قولتلك يا شكري أنا منفعش للجواز.

لم يرد شكري وحاول احتضانها، فازدادت الرجفة في جسدها وقالت وهي شبه غائبة عن الوعي:

ـ اللي شاف مش زي اللي سمع، قولهم يرحموني، بلاش فران، مبقتش قادرة، قولهم حرام، بلاش يوجعوني، ارجوك أنا خايفة.

وفيما يشبه الهذيان باتت «نورسين» في ترديد كلمات لم يفهمها شكري باللغة الفارسية، وبازدياد الرجفة سقطت يديها عن موضع

العفة، ليشاهد رغمًا عنه، بدافع فضول النظرة الأولى أثار جروح غائرة، وتشوهات واضحة فيما بين رجليها.

انتفض ونظر بعيدًا وهو يغمض عينيه، ارتدى بيجامته، وعدل وضعها على الفراش رغم عدم توقفها عن الهذيان والارتجاف، غطاها جيدًا وأضاء النور، ثم غادر الشقة.

حاول الابتعاد عن كل مكان قد يقابل فيه شخصًا يعرفه، جلس في تلك الحديقة الفاصلة بين حارتي الطريق في شارع جسر السويس لأكثر من ساعة، عاجزًا عن منع دموعه، بكى كما لم يبكي من قبل، جفف دموعه، واتجه إلى سور حديقة الميريلاند، دار حوله لأكثر من ٦ لفات خلال حوالي ساعتين، ثم أكمل السير حتى «صبحي الحاتي» في منطقة التجنيد، اشترى نصف كيلو كباب، وأثناء عودته إلى المنزل واسفل كوبري «التجنيد» أشترى بوكيه ورد من بائع الورود الذي كان يمارس طقوسه الصباحية عند فتح المحل برش الماء على الأسفلت المقابل.

وعاد شكري إلى البيت وهو يدندن بعد أن حسم أمره قائلاً:

يا حبيبي و أنت خمري و كأسي
و منى خاطري و بهجة أنسي
فيك صمتي و فيك نطقي و همسي
و غدي في هواك يسبق أمسي.

وأمام الفراش انحنى ليقبل جبهتها بعدما أضاءت شمس النهار صباح غرفة نومهما وهو يصرخ بصوت عال والابتسامة تملأ وجهه:

ـ يلا يانور عندنا سفر لاسكندرية وشهر عسل كامل حتتفرجي فيه على مصر كلها.

***

ربما أدرك شكري حدوده مع «نورسين» حين كللت محاولتهما خلال رحلة الأسكندرية بالنجاح مرة واحدة، قدر للغاية محاولاتها مساعدته رغم ألمها النفسي الشديد، وكيف أجبرته على ذلك رغم قراره بتجنب هذا حفاظًا على سلامها وأمنها، أدركت حبه ورغبته في التضحية، وأكد حبها.

قال لها يومًا على شاطيء البحر أثناء الاستعداد للعودة إلى القاهرة:

ـ ابتسامتك كفاية، طبطبتك كفاية، مش بحلم غير بسعادتك.

وحين وصلا للقاهرة احتضنته بشدة، وفي ثوان كان سويًا في الفراش، للمرة الأولى لم تبكي وتردد بعض الكلمات الفارسية التي لا يفهمها، لم يرتسم الفزع والألم على ملامحها ليغير شكلها تمامًا حتى يظن للحظات أنها ليست زوجته، فقط أغمضت عيناها في صمت واستلقت أسفله في وداعة لم يعتدها.

وبمجرد أن انتهى قبلته بشدة وغادرت الغرفة مسرعة تجاه الحمام، تنفس الصعداء وتساءل هل انفكت العقدة، وهل زال هذا الحاجز المخيف بينهما، إلا أن الأيام التالية أكدت له أنه لا فائدة ترجى، فقط كان إعلان الحمل سببا جديدا للحياة بالنسبة لشكري الذي لم يشعر بالسعادة مثلما شعر ذلك اليوم.

التقط عشرات الصور لزوجته داخل عيّادة طبيب أمراض النساء والولادة، والتقط لنفسه صورة معها أسفل تمثال إبراهيم باشا بعدما غادرا عيّادة الطبيب، وأصر على أن يركبا تاكسي للعودة إلى شقتهما في حي الزيتون، وداخل سيارة الأجرة أخبرها بالتعليمات:

ـ كان حلمي دايما إنك تبقي سعيدة، وكان نفسي يبقى عندي ولاد،

ومبقالناش غير ٣ شهور متجوزين، وحققتي حلمي الشخصي ولسه مخلتكيش سعيدة كفاية.

ابتسمت نورسين في وجهه وقالت وهي تضع يدها على فمه حتى يسكت:

ـ بحبك يامجنون، أي ست هادي اللي متبقاش سعيدة وهي راجلها كل يوم الصبح بيقابلها بابتسامة وحضن وكل ليل ببوكيه ورد ابيض جميل زي روحه

احتضنها شكري بشدة، متجاهلاً تلك النظرات القلقة لسائق التاكسي في مرآة سيارته، وتمتمته الخافتة الغاضبة من ذلك الحضن الحار.

وفي الصباح قبّل شكري بطن زوجته قبل أن يغادر الشقة في طريقه إلى الاستوديو، طالبًا منها الراحة في الفراش، لأنه سوف يعود بغداء اليوم على الرابعة ظهرا، وقبل أن يغادر الشقة، كان أمامها في الفراش مجموعة من شطائر الجبن وكوب من الشاي بلبن، وضعهم في خفة وابتسم منصرفًا قبل حتى أن ينتظر تعليقًا.

لكن عندما عاد شكري في الرابعة لم تكن عيناه تحملان نفس اللمعة، وبدا شاردًا وواجمًا، سألته زوجته عن السبب، إلا أنه لم يرد سؤالها واكتفى بإطعامها بيده إصبع من الكفتة التي عاد بها من الحاتي، ثم انصرف مسرعًا عقب الغداء للعودة إلى الاستوديو، دون حتى أن ينتظر لشرب كوب الشاي بالنعناع مثلما اعتاد منذ زواجهما.

وفي المساء داخل الفراش، ورغم الورد الأبيض الذي أحضره لزوجته ووضعته في مزهرية ورد بجوار الفراش، كان القلق يأكل روح شكري أبو عيّاد، والخوف من غد صار لا يشبه اليوم ولا الأمس،

هاجسًا جعل أنفاسه تتسارع لدرجة أن زوجته بعد أن يأست من أن يرد سؤالها وراحت في النوم، استيقظت بغتة لتقول له:

ـ في إيه يا شكري، مالك أنت خايف من إيه؟

***

لم يتمكن شكري أبدًا من إجابة سؤال زوجته، فقط تذكر أنه ولأول مرة منذ عمل بالتصوير ومنذ أنشأ الاستوديو الخاص به يستقبل زبونًا جاء بزوجته وولديه وبنته طالبًا تصويرهم من أجل إخراج جوازات السفر لهم، مشترطًا ألا يراهم المصوّر.

تخيل شكري بسبب لهجة الرجل المصرية المكسرة واختلاطها بلهجة خليجية أن الزبون ينتمي لدولة خليجية، فحاول أن يشرح له أن هذا مستحيل، وأن المصوّر عليه أن يوجه زبائنه ويراهم حتى يستطيع تصويرهم.

أصر الرجل على رأيه وتركه يصور أولاده الثلاثة، قبل أن يتخذ مقعده أمام شكري ليقوم بتضبيط الصورة عليه، وبمجرد الانتهاء طالبه الرجل بمغادرة غرفة التصوير، واستبدل مكانه بزوجته المنتقبة، التي استعدت لخلع النقاب من أجل الصورة.

غادر شكري الغرفة مندهشًا، قبل أن ينتابه الغضب ويقرر العودة ليجد الرجل وقد انتهى من تصويرها، انتزع كاميرته من على حاملها وهو يقول بغضب:

ـ ما أنا حاشوفها في التحميض يا شيخ.

بسمل الرجل وحوقل وقال وهو يشير لامرأته من أجل العودة

للسيارة خارج الاستوديو:

ـ تتحمل الذنب وحدك، هذه امرأتي تسافر معي للعمل في الخليج، ولولا الحاجة ما اضطررت للتصوير الحرام. ثم ألقى بقيمة التصوير دون أن ينتظر وصلاً وغادر الاستوديو. خرج شكري خلفه، ولحق بالسيارة ليقذف فيها بالنقود قائلاً لزبونه الذي اكتشف مصريته منذ قليل:

ـ مالكش صور عندي، اعتبرها اتحرقت.

وعلى مدخل الأستوديو تأمل واجهته وكأنها المرة الأولى وفي أذنه ترددت كلمة واحدة:

ـ التصوير حرام.

***

القاهرة ٢٠١٣

عاد أيمن من رحلة «خان الخليلي» و«المتحف المصري» مرهقًا، لم يستطع قيادة سيارته إلى منزل والدته في حي الزيتون وفضل العودة إلى شقته القريبة من شركة السياحة التي يعمل فيها في وسط المدينة، ألقى ملابسه على الارض كما اعتاد دائمًا وقفز إلى البانيو محاولاً الاستحمام واستعادة نشاطه بعد يوم مرهق في رفقة وفد سياحي ياباني.

انهمك في الاستمتاع بالماء الساخن وصوت سخان الغاز الذي يشبه صوته موال شعبي لأحد المطربين الشعبيين القدامى، غنى سعيدًا بأول «سبوبة» تدخل جيبه منذ شهر تقريبا بعد المرور على بازار «الدخاخني» في الخان، اشترى السياح أوراق البردي والتماثيل المقلدة وبعض المشغولات الفضية فرعونية الطراز، وحصل هو على ألفي جينه نسبة من المبيعات.

غادر البانيو مغنيًا:

ـ الأقصر بلدنا بلد سياح فيها الأجانب تتفسح، وف كل عام وقت المرواح بتبقى مش عايزة تروح.

وبعد أن أنهى تجفيف جسده بالمنشفة نظر إلى مرآة الحمام التي اكتست ببخار الماء محاولاً تصفيف شعره.

غابت ابتسامته العريضة فجأة حين رأي صورة مثبتة على الجانب الأيسر العلوي للمرأة وكأن يدًا وضعتها في التو واللحظة، لأنها دونًا عن بقية المرآة خلت من بخار الماء الذي كان يعبيء هواء الحمام، انتزع الصورة ونظر فيها فوجد نفسه صغيرًا بصحبة والده أمام تلك اللوحة المعلّقة على مسجد الحسين بالقرب من مدخل خان الخليلي، رأى تلك الإبتسامة التي كانت على وجهه منذ قليل لكن هذه المرة كانت على وجه والده، بينما كست وجهه الصغير تقطيبة صاحبتها بعض الدموع أثناء التقاط الصورة.

***

القاهرة (بداية التسعينيات)

ضرب أيمن الكرة بقوة محاولاً إحراز هدفًا لكنها ارتطمت بقالب الحجر الذي كان يمثل عارضة الفريق الخصم، وقبل أن يجري لمتابعة الكرة أوقفه نداء جهوري بصوت والده من شرفة شقتهم:

ـ يا أيمن اطلع بسرعة.

التفت أيمن ذو السنوات السبع إلى والده الذي ارتدى منامته وتحولت ملامحه بفعل الغضب الواضح على وجهه، ارتجف جسده للحظة ولكن

الخجل من أن يلحظه رفاق لعب الكرة في الشارع أجبره على التماسك والصعود جريًا إلى شقته صارخًا:

ـ رااااايت.

توقف اللعب بناء على الكلمة المتفق عليها، فأكمَل أيمن:

ـ معلهش كمِّلوا انتوا حشوف بابا عايز إيه وارجع تاني.

وعلى باب الشقة وقبل أن ينطق أيمن كان شكري ممسكًا برجل أحد المقاعد الخشبية المكسورة، هابطًا به بعنف على كتف الصغير الذي حاول الهروب في اتجاه غرفته، لكنه أمسكه من ياقة قميصه وطرحه أرضًا وانهال عليه ضربًا بالركلات والعصا قائلاً في غضب:

ـ قلت ميت مرة مفيش لعب في الشارع، مش عايزك تصاحب حد هنا، أنت مبتتعلمش؟

وضع أيمن يديه على وجهه لا إراديًا محاولاً حمايته وصرخ مستعطفًا والده:

ـ حرَّمت يابابا والله حرمت.

أسرعت نورسين محاولة إبعاد شكري أبو عيّاد عن ولده الصغير، لكنه دفعها بيده موجهًا الحديث لها:

ـ سيبيني أربِّي الواد يانور.

قالت نور بعد أن أفلتت الدموع من عينيها:

ـ الرحمة يا شكري، أيمن لسه صغير مش فاهم حاجة.

ثم أغمضت عينيها وبدأت تردد في خشوع:

ـ «كُتب على كلّ أبٍ تربية ابنه وبنته بالعلم والخطّ ودونهما عما حُدِّد

في اللّوح والّذي ترك ما أُمر به فللأمناء أن يأخذوا منه ما يكون لازمًا لتربيتهما إن كان غنيًّا وإلاّ يرجع إلى بيت العدل إنّا جعلناه مأوى الفقراء والمساكين، إنّ الّذي ربّى ابنه أو ابنًا من الأبناء كأنّه ربّى أحد أبنائي عليه بهائي وعنايتي ورحمتي الّتي سبقت العالمين».

ـ "إنّ الإنسان بمثابة فولاذ جوهره مستور، فبالتّربية والنّصيحة والذّكر والبيان يظهر ذلك الجوهر عيانًا وأمّا إذا بقي على حاله فسوف يعدمه صدأ مشتهيات النّفس والهوى".

ـ "أمّا الأطفال أمرنا أن يربّوهم في بادئ الأمر بآداب الدّين وأحكامه ثم بالعلوم النّافعة والتّجارة المزيّنة بطراز الأمانة والأعمال التي تكون دليلاً لنصرة أمره أو يجذب به أمرًا يُقرّب العبد إلى مولاه نسأل الله أن يؤيّد أطفال أوليائه ويُزيّنهم بطراز العقل والآداب والأمانة والدّيانة إنّه هو الغفور الرحيم".

ـ "يا حسين يا معلّم قد أقبل إليك وجه القِدم من شطر سجنه الأعظم ويعلّمك بما يقرّبك إلى الله مولى الأنام، طوبى لمعلّم قام على تعليم الأطفال وهدى النّاس إلى صراط الله العزيز الوهّاب".

توقف شكري أبو عيّاد عن ضرب ولده وأفلته من يده مقتربًا من والدته، فنهض أيمن مسرعًا واختبأ في غرفته:

ـ ليه بتعملي كده يانورسين ليه؟

ـ اللي أنت بتعمله ده جنون يا شكري، ده طفل لا منك علمته ولا منك عايزه يعيش سنه ويلعب؟

سقط شكري على أقرب مقعد بجوار نورسين وقال في ألم:

ـ أنا مش أب وحش يا نور، أنا بس خايف عليه حتى حتشوفي.

ثم صرخ بصوت عال:

ـ البس ياواد يا أيمن حنروح نتفسح في الحسين وخان الخليلي.

ثم أشار إلى زوجته قائلاً:

ـ يلا قومي البسي حنتعشى هناك.

هزَّت نورسين رأسها رافضة وقالت وهي تغادره إلى غرفة ولدها كي تساعده في ارتداء ملابسه

ـ خليكم لوحدكم، حاول تصاحبه يا شكري ومتخليهوش يخاف منك.

ثم أغلقت الباب خلفها وهو يقول مخاطبًا نفسه:

ـ أخليه يبطل يخاف ازاي وأنا نفسي خايف؟

* * *

القاهرة (٢٠١٣)

مرت ذكرى ذلك اليوم في رأس أيمن أثناء ارتداء ملابسه، تذكر في أسى تلك الرحلة التي حاول والده فيها ان يكون ودودًا، وأن يقنعه أن لعب الكرة في الشارع للأطفال الضالة، وأن عليه أن ينتظر فتح باب التقديم لأي نادي ويجرب فرصته، وأنه سيشترى له مجموعة من الكتب لممارسة القراءة التي كان يكرهها.

وضع الصورة في حقيبته واستعد للمغادرة وهو يراجع هاتفه المحمول بحثًا عن رقم صديقته «جين» بعد أن وصلته منها رسالة كان نصها:

«بعض القبلات تشبه تلك اللحظة التي تترك أشيائك لغريب في المقهى، بلا أي مبرر سوى أنه موجود منذ فترة »

ضغط زر الاتصال فلم يجبه سوى رنين الهاتف الذي اتصل حتى انقطع، حاول الاتصال مرتين أخريين أثناء هبوط السلم، لكن بقى الرنين على عهده بالإجابة، كتب رسالة نصية قصيرة قال فيها:

ـ مش فاهم رسالتك، قصدك إيه يا جين.

وقبل أن يدير سيارته وينطلق نحو بيت أمه كان رد «جين» حاضرًا:

ـ اللي بينا خلاص انتهى، أنا زهقت.

وجه سيارته تجاه بيت صديقته «جين» في شارع شهاب بالمهندسين، ثم هاتف والدته قائلاً:

ـ معلهش ياماما احتمال آجي متأخر أو أبات في وسط البلد النهاردة.

وعلى باب شقتها قابلته بملامح باردة خالية من أي مشاعر، سدت الباب بجسدها وعلى وجهها نظرة «ماذا تريد»، تساءل أيمن:

ـ ممكن أدخل؟

أفسحت له طريق الدخول بجسدها دون أن تنبس ببنت شفة..

دخل إلى ذلك البار الصغير في مكتبة التليفزيون والتقط زجاجة فودكا مفتوحة ونصف ممتلئة وأسرع تجاه المطبخ ليحضر كوبًا وثلجًا وعصيرًا وتساءل متجاهلاً نظرتها المتعجبة:

ـ حتشربي معايا؟

عادت جين لمقعدها المفضل أمام شاشة التلفاز التي كانت تعرض فيلمًا أجنبيًا على «إم بي سي ٢» وهي تقول في ضجر:

ـ لأ.

صبَّ أيمن لنفسه كأسًا وتبعه بآخر، تجرَّع كلاًّ مِنهما بسرعة غير عادية

وهو يتصفح كتابًا وجده موضوعًا على المنضدة ثم قال دون أن ينظر إلى جين:

- يعني إيه اللي انتي بعتيه ده؟

نظرت له جين بغضب ولم ترد.

تجرع أيمن الكأس الثالثة وشعر ببعض التنميل في رأسه ثم قال بصوت أعلى:

- يعني إيه ياجين اللي بينا انتهى؟

أمسكت جين «الريموت كونترول» ورفعت صوت التلفاز ليعلو على صوت أيمن. صبَّ أيمن الكأس الرابعة وتجرعها دون عصير هذه المرة جرعة واحدة وصرخ ناظرًا إليها:

- يعني إيه انتهى ردّي عليا؟

رفعت جين صوت التلفاز لأقصى درجة، فنهض أيمن من مقعده وأغلق التلفاز فاصلاً الكهرباء عنه في عنف وهو يصرخ مخاطبًا جين:

- ردّي يعني إيه انتهى؟

أسرعت جين تجاه باب الشقة وهي تصرخ فيه للمرة الأولى:

- اطلع من بيتي يا أيمن، وياريت متجيش تاني، اللي بيننا انتهى.

رفع أيمن زجاجة الفودكا ليشرب منها مباشرة لكنه فقد السيطرة على نفسه فابتل صدره تمامًا عاوده صوت جين آمرًا بهدوء: اطلع برة يا أيمن.

ألقى أيمن الزجاجة على الأريكة وأخفى تلك الدموع التي غزت عينيه وأسرع مغادرًا الشقة، وعند باب المصعد وقبل أن تغلق الباب سألها في ألم: طب ليه؟

أجابت وهي تغلق بابها:

ـ لما تفوق حتفهم.

قاد أيمن سيارته دون هدى في شوارع القاهرة، ثم قادته رحلته إلى ستوديو والده في شارع «سليم الأول»، تذكر رغم بخار الكحول الذي ملأ رأسه أثر شرب ثلاث زجاجات أخرى من البيرة أن مفتاح الاستوديو موجود داخل تابلوه السيارة، فكر للحظة، ثم ركن السيارة وأخرج سلسلة المفاتيح واتجه إلى باب الاستوديو المعدني بينما صوت أذان الفجر يتردد في المنطقة من عدة مساجد مختلفة.

وبعد معاناة نجح في فتح الباب، وأغلقه حتى النصف خلفه، وداخل الاستوديو أضاء النور الداخلي ثم وقف قائلاً:

ـ عايز مني إيه يا شكري يا أبو عيّاد، خنقتني وأنا عيل، لا سبتني العب زي بقية العيال، ولا سبتني أعمل أي حاجة بحبها، الصح كان بس اللي أنت شايفه، الحلو إني أمسك كاميرا وأتعلم التصوير، وأنا باكره التصوير أكتر ما كرهتك، وفي المراهقة ؛ ما تحبش متحلمش، وبعد ما طفشت وكبرت واشتغلت وعملت كل حاجة بحبها، راجعلي تاني بعد الموت، وكأنك مت بس علشان ترجعني، والمرادي عايزني أسامحك على كل حاجة، عايزني أكتشف إن كل اللي عملته ده كان حب، عايز مني إيه ياشكري؟

ثم انهار أيمن ساقطًا على أحد مقاعد الإنتظار الجلدية في الاستوديو بينما كان هاتفه يبعث رنين وصول رسالة نصية قصيرة، فتحها ماسحًا دموعه بقميصه ليتمكن من أن يقرأ رسالة بعثتها «جين» كان نصها:

ـ شوف مرة الصورة كاملة، أنت أناني يا أيمن مش بتشوف غير

نفسك، وانا متعودتش أحب حد أناني، مش بيظهر غير لما يحتاج، مش بيدي غير لما ياخد، اتعلم مرة في عمرك تقدر غيرك.. سلام.

أغلق أيمن هاتفه دون أن يرد، وأغلق الاستوديو من الداخل، ثم عدل وضع مقعدين ليواجها بعضهما ، وتمدد فوقهما غارقًا في نوم طويل.

وعقب نوم متقطع وضوء تسلل إلى عينيه من نصف الباب المعدني المفتوح، وطرقات بعض المتطفلين الذين فوجئوا بفتح الاستوديو بعد إغلاقه لفترة، استيقظ أيمن محاولاً تذكر ذلك الحلم الغريب الذي داعب نومه، وتلك الحكاية التي رواها له والده خلال الحلم.

اعتدل على المقعد دافعًا الآخر بقدميه، وأخرج علبة سجائره مشعلاً السيجارة الأولى.

ألقى نظرة على ساعة يده التي أشارت إلى العاشرة صباحا، قرر الذهاب إلى والدته من أجل تناول الإفطار والاستحمام، وقص الحلم إن تذكره، وقبل أن يغادر الاستوديو لفتت نظره كراسة صغيرة استقرت على يد المقعد الذي كان جالسا عليه، فتحها بحكم الفضول، صافح وجهه خط أبيه المكتوب بعبارت قصيرة في كل صفحة، مع قليل من الشرح:

ـ التصوير منحة الله التي وهبتنا الخلود.

«عشقت كوني مصوّرًا، كوني أداة تمنح البشر تخليدًا لحظاتهم، تخليدًا صورهم، كم هو من الرائع أن تكون يد الله المانحة «

ـ عودت نفسي ألا أنطق كلمة لم تخرج من قلبي، لا داعي للكلام، جعلت لساني حضنا للأخرين

«ربما يعتبرها البعض عادة بحكم المهنة وجذب الزبون، لكني أعتنقتها مبدأ لباقي حياتي»

ـ وكتب الله لنا أنفاسًا في صدور من نحب... تأتينا بها القُبلة.

«بين شفاه نورسين فقط صرت أستطيع التنفس»

ـ المهنة التي عشقتها صارت مرتعًا لأنصاف الموهوبين..عندما تشعر بالعجز عن صد طوفان القبح، ادخل قوقعتك واصنع عالمك.

« الكل يحمل كاميرا رقمية، يلتقط الصور كيف يشاء، لم تعد الصورة تخليدًا للحظة، بل هواية عابثة ماجنة تطيح بها كلمة امسح «

ـ الخيانة هي الشيطان، كلما انتصر عليَّ الشيطان كرهت ضعفي.

«أقسم في كل مرة ألا أعود، وغالبًا أعود بسبب ضعفي، لعنة الله على الضعف، ويارب هبني الحياة»

ـ لم أفهم حتى الآن كيف يشتكون إلى الله وهو يعرف، وأبدًا لا يسمعون له وهم لا يعرفون.

«الكل يدعي معرفته بالله، الكل يهتف الله محبة، الكل يبغض خلق الله، إنهم يكرهون كل مختلف»

ـ نحب أبنائنا كما لن نحب أبدا..وكذلك نخاف عليهم، ومابين الحب والخوف هي المعادلة الصعبة.

«يتغلب خوفي على حبي، لأنني أدرك أنني من فرط حبي على ولدي أخاف عليه»

ـ تمامًا كزهرة عباد الشمس..لم يلتفتوا إلى جمالها وطبيعها، فقط أزعجهم اختلافها، فكفَّروها.

«صرت أشفق على تلك الزهرة التي يطلق عليها من يدعون الإيمان «دوار الشمس»، رغم أننا ولدنا وهي «عباد الشمس» فلم نرها يوما إلا

جميلة، كل خلق الله جميل، ولم نرى القبح إلا كي نعرف قيمة الجمال، أنا زهرة عباد الشمس التي تريدونها دوارًا»

أغلق أيمن الكراسة، وأعاد استرجاع الكلمات مرة أخرى في رأسه، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وعزم على أن يعود إليها مرة أخرى، وضعها في جيبه وأحكم إغلاق الاستوديو وسط تحيات جيران العمل الذي حرص على الرد عليها بود شديد.

وحين ركب سيارته، واثناء محاولة إعادة المفاتيح لمكانها صافحت يده صورة جديدة، أمسكها وكأنه اعتاد وجود مثل تلك الصور، تأملها جيدًا، فوجد والده بصحبة صديق عمره حمزة على شاطيء البحر في الأسكندرية، ارتفع حاجباه وهو يقول كمن تذكر شيئًا "

- صحيح عم حمزة ازاي مجاش في بالي؟

ودون أن يفكر وبعد أن أجرى اتصالا بوالدته ليعرف بالضبط مكان وكالة عم حمزة في حي العتبة كان في طريقه إلى مقر عمل صاحب والده المقرب؟

***

القاهرة (الثمانينات)

أنهى شكري أبو عيّاد عشاءه بصحبة صديقه حمزة، تأمله وكأنه يراه للمرة الأولى، لاحظ تلك الوسامة الشديدة التي كثيرًا ما أوقعت النساء في غرام هذا الشاب الثلاثيني، شعره الأصفر وعيناه الزرقاوتان وأنفه الطويلة الرفيعة وزوج حاد من الشفاة جعلاه أقرب لنجوم السينما العالميين، أخبره حمزة اليوم أنه سيترك تجارة والده في القماش في المحل المجاور لاستوديو شكري، وانه سيسافر إلى الاسكندرية، تلك القرية

المتمدنة التي سيجد فيها مكانًا لقدمه في عالم «البيزنس»، وكانا يتناولان العشاء الأخير قبل السفر، ابتسم حمزة لنظرة صديقه الطويلة قائلاً:

ـ إيه يا شكري أنت مش حتشوفني تاني ولّا إيه؟

ـ لا حشوفك يا حمزة، حاتلكك وأجيلك الماريا.

ـ طيب أومال مالك؟

جفف شكري أبو عيّاد يديه بمنديل السفرة وتجرع زجاجة البيبسي قبل أن يقول:

ـ مش عارف يا حمزة، لسه مش مصدق إني مش حاشوفك كل يوم وأنا بفتح الاستوديو، مش حنلعب دومينو سوا العصرية، مش حتيجي معايا الأفراح تتمسخر على الناس كلها وتطلع القطط الفاطسة في العريس والعروسة، مش حنشرب بيرة سوا بعد كل فرح وتقعد تقلدلي كل الناس اللي بتمثل في الفرح.

ابتسم حمزة وتناول إصبع كفتة لاكه ببطء وتلذذ شديد وهو يقول:

ـ القماش بح يا شكري، أبويا مش عايز يغير نشاطه، الناس بقت بتلبس جاهز، والموضة دلوقتي وبعدين هي الحجاب، لو وافق نشتغل في الطرح حنكسب دهب، واهي قماش برضو.

ـ طيب ما تقعد في القاهرة وتشتغل أنت في الطرح.

ـ كام سنة في اسكندرية وراجع أشتغل فيها هي وبقية العدة اللي حتظهر.

رجع شكري أبو عيّاد برأسه متعجبًا:

ـ عدة إيه اللي حتظهر يا حمزة؟

ـ بقية ملحقات الحجاب يا شكري

أنهيا طعامهما وأصر شكري على دفع حساب العشاء الأخير، مذكرًا صديقه أن عليه أول عزومة في الأسكندرية حين يزوره، وتمشيا من مقر محل «الرفاعي» للمشويات في السيدة زينب وحتى الكورنيش في منطقة جاردن سيتي، لم يتحدثا كثيرًا أثناء التمشية، فقط غنيا سويا أغنية وردة الجزائرية «وتاهت بينا ليالينا»

ليالينا

ليالينا ليالينا

وتاهت بينا ليالينا

وتاهت بينا تاهت ليالينا ليالينا

وقولنا نرسى نرسى على مينا

مشينا وادينا من غير اهالينا

ولا حد بيسال فينا

واتارى الدنيا غداره غداااااره

بتغدر كل يوم بينا غداااااره

والله وجيتى علينا يا دنيا جيتى علينا علينا يا دنيا

وجيتى كتير على ناس قبلينا

ليالينا ليالينا

وتاهت بينا ليالينا

الحـــنيـــة

طب فين هـــى

ابكى يا قلبى على الحنية
هى الدنيا جرى فيها إيه دى جرى فيها إيه
حتى الناس صبحت مش هى
راحت فين الكلمه الحلوة
راحت فين الناس الحلوة
ضيعتيهم وجرحتيهم وتوهتيهم.

ضحكا للغاية بعد انتهاء الأغنية حتى اغرورقت عيناهما بالدموع، ثم التفت شكري إلى حمزة وقال بجدية:

ـ مفيش حاجة حتفرقنا يا حمزة.

احتضن حمزة شكري وقال ضاحكًا:

ـ أنا عارف إنك خايف على الألفين جنيه بتوعك اللي سلفتهوملي.

ضحك شكري بصوت عال ودفع حمزة بعيدًا وهو يقول:

ـ يلا ياواطي وقفلنا تاكسي خلينا نروح احنا قربنا من الفجر، أخيرا حنخلص من كدبة الدكتور.

***

القاهرة (٢٠١٣)

لم تتغير ملامح الدكتور «حمزة» كثيرا رغم أن أيمن لم يلتقي به منذ ما يزيد عن عشرين عامًا، توقع أيمن أن يكون قد تخطي الستون من عمره لكنه يحافظ على مظهره الشاب وملامح وجهه الأوروبية التي عجزت التجاعيد عن غزوها بينما استعان بالصبغة لتهزم الشيب الذي غزا شعره.

لم يلتفت جيدًا لاسمه في البداية حين طلب منه الجلوس حتى ينهي

حواره مع أحد مندوبي المبيعات الذين يعملون في شركته الصغيرة للاستيراد فعلاً والتصدير اسمًا.

قال الدكتور «حمزة» مخاطبًا مندوب المبيعات الذي بدا عليه الامتعاض:
- يا ابني لازم تلبس الكرافتة، أنا مش بطلب منك وباصر وبافتش عليها غلاسة، الكرافتة مهمة ليك أكتر ماهي مهمة ليا ولبضاعتي، كده كده اللي قاعد على قهوة أو في محل وبيشتري منك بارافان صيني ولا قلم كشاف ولا غيره، مش مستني كرافتتك علشان يشتريها، إنما والدتك في البيت وانت نازل، ووالدك لو كان لسه عايش، محتاجين يشوفوا الكرافتة، محتاجين يحسوا إن ابنهم اللي كبروه وعلموه بقى حاجة محترمة حتى لو شكلاً بس.

ثم غادر الدكتور «حمزة» مقعده خلف المكتب بطريقة مسرحية واقترب من الشاب الذي لانت ملامحه بعض الشيء ووضع يده فوق كتفه وهو يسحبه رويدًا رويدًا إلى خارج المكتب قائلا بحنان بدا مبالغًا فيه: يا واد أنا باريح أهاليكم، يعني لا فلوس ولا برستيج، أنا اصحابي من ٤٠ سنة سموني الدكتور، علشان أنا أبويا كان نفسه يشوفني طبيب، وأنا دخلت تجارة على قد مجموعي، ومات وهو راضي عني ومبسوط وفاكرني دكتور.

وعند باب المكتب خفض الدكتور حمزة ذراعه من على كتف الشاب واعتلت تقطيبة واضحة وجهه وهو يقول محذرًا:_ يلا انزل شوف حالك، ومسمعش ولا أشوفك تاني قالع الكرافتة في شركتي.

أغلق الدكتور باب المكتب ثم عاد موجهًا حديثه إلى أيمن:

- خير يا ابني، اؤمرني.

أخفى أيمن ابتسامته سريعًا وهو يرد:

ـ أنا ابن شكري أبوعيّاد.

انتفض الدكتور قبل أن يمس مقعده الذي كان على وشك الجلوس عليه وهرع تجاه أيمن وكأنه يراه للمرة الأولى منذ دخل المكتب واحتضنه بحميمية شديدة وهو يقول:

ـ ياغالي يا ابن الغالي، أهلا وسهلا بيك.

تملص أيمن من الحضن الدافيء الذي لم يريحه دفئه وأخرج الصورة من جيبه ووضعها في حيز رؤية الدكتور وسأل:

ـ حضرتك فاكر الصورة دي؟

ـ أبوك مكنش يحب يمشي وهو مبسوط غير حافي، عارف ليه يا أيمن، علشان أبوك مكنش بيحب الجزم، وساعات فرحته كانت أقل من إنه يخلي جنبه أي حاجة بتضايقه.وكل اللي أنت شايفه حواليك ده أبوك ليه فضل فيه، لأنه هو صاحب فكرة شركة الاستيراد دي، من ساعة ما كنت باستورد بطاريات الكاميرات، وكان يبعتني بيها على المصوّرين زمايله، لدرجة إني بقيت أشهر مورد ليها في مصر.

أبوك مكنش بيحتاج حاجة من حد، علشان كده لما البلية كانت تلعب مع واحد فينا ويبعد شوية، كان يقلعه علشان يبقى مبسوط.

وأبوك في الصورة دي كان حافي علشان ساعد عمك على إنه يفتح محل لتصوير الورق بعد ما شغلانته بارت ع المسرح.

اعتدل أيمن وهو يستعد لمغادرة المكان، وهو ما لاحظه الدكتور حمزة فقاطعه سائلاً:

ـ أنت بتسأل ليه يا ابني؟

اختلجت شفتا أيمن ونبتت دمعة في عينه حاول إخفاءها بالنظر بعيدًا متأملاً الوكالة بسقفها الأزرق الكالح، وذلك التجليد الخشبي الذي يرتفع لنصف جدرانها والمطلي بملمع بنفس لون الخشب، وتلك الرائحة الخاصة التي صنعها به الزمن، وعدة مراوح حملت ماركة يابانية عتيقة واحتلت أركان المكتب الأربعة، بينما اتسع الحائط خلف مقعد الدكتور حمزة لخريطة كبيرة للعالم بالألوان الطبيعية وفوقها اسم الوكالة، بينما تزين الحائط الأيسر الذي يقع في مواجهته بثلاثة صور لاحظها للمرة الأولى قبل أن ينتفض ويقترب من أحدها متجاهلاً سؤال الرجل الذي أراح ظهره على المقعد.

* * *

الأسكندرية (التسعينيات)

تأمل شكري أبو عيّاد تفاصيل المكان من حوله، وذلك الزي المميز للأطباء والتمريض، وكذلك تلك الأشجار العتيقة التي احتلت الحديقة ومالت أطراف أغصانها محتضنة بعضها البعض لتشكل سقفًا طبيعيًا امتص ضوء الظهيرة ومنع الحرارة المصاحبة له وسمح للنسيم بأن يتدخل بمعرفته في تلطيف الجو، قبل أن يلتفت إلى صديقه حمزة النمر الذي تمدد على الحشائش محتضنًا «تُرمس» الشاي بيده اليسرى، واضعًا اليمنى تحت رأسه، مغمضًا عينيه في استرخاء.

هزه شكري أبو عيّاد ضاحكًا وهو يقول:

ـ الله يخرب بيتك ياحمزة، جايبني تفسحني في مستشفى الحميات في اسكندرية.

ابتسم حمزة دون أن يفتح عينيه وقال:

ـ حتلاقي خُضرة أحسن من كده فين، ويادوب تذكرتين التذكرة بنص جنيه، ومعانا الشاي بتاعنا وفي شوية ممرضات تمام التمام، يعني خضرة وشاي ووجه حسن.

ـ مستشفى الحميات يا حمزة؟!

ـ ومالها يعني مستشفى الحميات، ده أنا حتى بفكر أفتح محل هنا في «الحضرة» علشان ابقى قريب منها، وأجي ارتاح شوية الضهرية.

اقترب شكري من وجه حمزة وأمسكه بعنف من خدوده وهو يهز رأسه ضاحكًا:

ـ اتعلمت البخل ده امتى يا جدع أنت؟

تملص حمزة من يدي شكري واعتدل جالسًا محافظًا على وضع «تُرمس» الشاي وهو يقول:

ـ فاكر لما كنت بتشكيلي إن الناس بتقول عليك بخيل علشان عارف قيمة القرش وعارف بتحطه فين؟

هز شكري رأسه مؤمنًا على الكلام، فأكمل حمزة وهو يصب كوب من الشاي لصديقه في الكوب البلاستيكي:

ـ أبويا شاكك فيا، وشغلانة أنا مش عايز أفتح عيّادة واشتغل معاك بعد الضهر وكفاية المستشفى الصبح اللي عملناها فيها ٥ سنين دي اتهيألي مدخلتش عليه قوي، ولما قولتله إني اتنقلت اسكندرية أصر ميدينيش ولا مليم علشان منفذش الفكرة اللي قولتهالوا في القاهرة، وأنا لازم ارجع له معايا فلوس.

أشار شكري لحمزة كي يتوقف:

ـ خلاص خلاص ياعم

أشار حمزة برأسه لممرضة مرت أمامها:

ـ حلوة صحيح.

لم يلتفت إليها شكري ولكنه عاد بظهره إلى الوراء واستلقى متمددًا هو الآخر، فأكمل حمزة كلامه:

ـ مش حتقولي بقى مالك يا صاحبي؟

ـ نورسين مخاصماني.

ـ ليه؟

ـ اتنيلت.

ارتفعت ضحكة حمزة بصوت عال جذب انتباه بعض رواد المستشفى من زائرين ومرضى تماثلوا للشفاء ويقضون بعض الوقت في حديقة المستشفى، قبل أن يقول:

ـ هههههههه أخيرا يا شكري، أنا كنت قربت أشك في رجولتك.

ـ مش عايز تهريج والنبي ياحمزة، أنا عارف إن لما نورسين بتزعل مني بابقى مش طايق الدنيا واللي عليها

ـ طب هي مش زي المرة الأولانية زعلت يومين كده مع نفسها والصبح صحيت لقيتها عاملالك فطار ملوكي وفارشالك الشقة ورد.

ـ مش عارف، بس المرة دي أنا شايف دموع محبوسة في عينيها طول الوقت، ونظرة مكسورة عاملالي رعب.

ـ طب وهي عرفت منين؟

ـ الستات بيعرفوا لوحدهم يا صاحبي لما الراجل يخونهم، حاسة سادسة.

تأمل حمزة وجه صديقه جيدًا وهو يقول ببطء:

ـ متأكد إنها عرفت يا شكري ولَّا اللي على راسه بطحة؟

ـ لا متأكد.

ـ ولَّا انت اللي قولتلها بلسانك زي المرة الأولانية خالص؟

ـ يووه متفكرنيش بقى يا حمزة.

ـ يابني أنا مش مصدقك، وساعات رغم انك صاحبي مش بفهمك، بقالك عشر سنين متجوز رغم إن أوضة نومك بالنسبالك أنت ومراتك كازينو بتشربوا فيه شاي وتقولوا كلمتين مش أكتر، وستر ربنا عليك بعتلك أيمن غلطة، ورغم كده حافظت على بيتك ومراتك اللي بتحبها، ولما غلطت أول مرة رغم إني مش شايفه غلط، رحت اعترفتلها وقولتلي ضميرك كان بيأنبك، رغم إني قولتلك متقولش.

قاطعه شكري:

ـ كان لازم أقول، وبعدين دي كانت غلطة، وفي ليلة سكر، طلقت الشرب بعدها بالتلاتة.

ـ طيب أديك غلطت تاني، والنهاردة جاي تقولي إنك غلطت تالت، إيه الفرق؟

امتدت شفة شكري السفلية والتوت معبرة عن حزنه وخيبة أمله وهو يقول:

مفيش فرق غير إني باكره نفسي بعد كل مرة، باحس إني ولا حاجة قدام نور.

بطل عبط يا شكري، مراتك ست الستات، وبتحبك واتهيألي رد

فعلها المرة اللي فاتت حيتكرر المرة دي، ٣ مرات في عشر سنين يا كافر، ده سيدنا أيوب ميعملهاش، متقلقش يا صاحبي المهم طمني ع الواد أيمن.

انتفض شكري لسماع اسم ولده وتأمل السماء قليلاً وهو يجيب:

ـ ماهو ده اللي مخوفني وراعبني ومخليني مش مستطعم أي حاجة في الدنيا.

***

(القاهرة ٢٠١٣)

الخوف يفسد تكوين الأشياء الجميلة، يفسد إحساسها وطعمها وكل ما يتعلّق بها، لهذا عندما عاد أيمن إلى مقعده بعد تأمل صورة والده التي علّقها صديق عمره حمزة النمر على الجدار، والتي كانت هي نفس الصورة التي وجدها مؤخرًا وهو يسمع تفاصيل خوف والده على مستقبله وإحساسه الغريب بالندم لإنجاب طفل في هذا العالم الذي يتحول رويدًا رويدًا والذي يمتهن الكراهية ويعتبرها تجارته الأكثر ربحًا في العالم، وبعد أن أنهى رواية موضوع الصور بكل تفاصيلها دون الولوج لحكايتي أمه وعمه وتفاصيلهما قال له حمزة:

ـ يا أيمن يا ابني أنا راجل ابن سوق، عشت حياتي بالطول والعرض، متجوزتش ولا خلفت، ورجعت من اسكندرية بعد سنة واحدة لأن أبويا مات وورثت، بس اقدر اقولك أبوك مش حيرتاح في تربته غير لما يعرف إنك سامحته.

ابتسم أيمن مرة أخرى وقال:

ـ أو يسامحني هو.

ـ الحقيقة لا انت حتسامحه ولا هو حيسامحك انتوا محتاجين تفهموا بعض.

وقبل أن ينهض أيمن الذي هم بالنهوض أكمل حمزة:

ـ سيبك م الصور، المهم الناس الحقيقيين، وسيبك من الخوف اللي وقف أبوك مكانه سنين.

وداخل حضن صديق والده المقرب بكى أيمن طويلاً وهو يودعه، ثم غادره وهو يشعر بالراحة، وبقدرته على التنفس بصورة أحسن. قاد سيارته دون هدى حتى حي الزمالك، وداخل أحد الكافيهات التي اعتاد الجلوس فيها ركن سيارته وغادرها لتناول بعض القهوة والحديث بهدوء مع نفسه.وداخل المقهى فوجيء بجين جالسة أمام اللاب توب الخاص بها، منهمكة في تدوين بعض ملاحظاتها عليه، اقترب منها بهدوء ملقيًا التحية في خجل:

ـ مساء الخير ياجين.

التفتت جين إليه، صبغ الفزع نظرتها للحظات، قبل أن تتغلب على المفاجأة لكنها تغاضت عنها وقالت مشيرة إلى أيمن كي يجلس:

ـ مساء الخير يا أيمن، اتفضل.

ـ مش عايز أعطلك عن الشغل.

ـ لا مفيش عطلة خالص.

ودون أحضان للمرة الأولى منذ عامين جلس أيمن دون حتى أن تصافح يده يد المرأة التي أحبها لمدة عامين، اقترب منه النادل فطلب قهوته التركية المعتادة، وعاد إلى الوراء متساءلاً عن سر هذا التحول في علاقتهما، وتلك الرسالة الغامضة حول قبلات الاعتياد التي أرسلته له

معلنة انهاء العلاقة.

ارتشفت جين الرشفة الأخيرة من قدح قهوتها وأغلقت حاسبها المحمول وهي تتحاشى النظر في وجه رفيق منضدتها المفاجيء:

ـ أنا حقوم أمشي يا أيمن، مش علشان أنت جيت، لا علشان أنا خلَّصت، وعلشان متسألش كتير ومتتعبش نفسك في التفكير، عايزاك تعرف إن سالي حكت لي على كل اللي حصل بينكم، واللي يخونني ميلزمنيش، واللي أبقاله «استبن» والاعتياد وصله لأنه ينام مع واحدة غيري، يبقى كده بح.

ونهضت واقفة وأخرجت من جيبها ورقة مالية من فئة الخمسون جنيهًا تركتها لأيمن على المنضدة وهي تنهي حديثها قائلة:

ـ كل واحد بيحب نفسه.. بس لو بذل مجهود يحب حد تاني نُص ما بيحب نفسه، الأرض كانت حتبقى جنة.

ودون سلام غادرته صديقته التي صارت سابقة وهو يتأملها في استغراق شديد، وبعد غيابها عن بصره لم يتوقف أيمن عن النظر إلى نفس المكان الذي رحلت منه حتى قاطعه النادل محضرًا القهوة التي طلبها، التقط أيمن منه زجاجة المياه المعدينة وفتحها دون الالتفاف لذلك الكوب الزجاجي الذي حاول أن يناوله إياه، ودون أن يحول بصره عن نفس المكان تجرع الزجاجة الصغيرة على جرعة واحدة ثم ابتسم بشدة وقال مخاطبًا نفسه:

ـ يالهوي يا أمه..أنتِ وبابا أسطورة على كده.

***

(القاهرة منتصف التسعينيات)

دفعت نورسين زوجها شكري أبو عيّاد الذي حاول احتضانها وهي تبتسم قائلة:

ـ ياراجل متعطلنيش الناس جاية والأكل ع النار، العزومة حتبوظ.

ابتسم شكري وتبع زوجته إلى داخل المطبخ رافعا أغطية الأواني الساخنة على الموقد، فدفعته مرة أخرى وهي تحاول رسم «تكشيرة» على وجهها:

ـ يا شكري متهرّجش، روح وضَّب السفرة على ما أيمن يجيب البيبسي.

رفع شكري أنفه وأغمض عينيه في تلذذ واضح لرائحة الطعام وهو يقول:

ـ يابختك ياحمزة يا ابن المحظوظة، نور عملالك «الفسنجون» مخصوص.

ابتسمت نورسين وهي تواصل دفع زوجها لخارج المطبخ قائلة:

ـ أولاً قول فراخ بالدبس علشان صاحبك وخطيبته ميتخضوش من الاسم، وثانيًا كلِّم عيد أخوك أكد عليه ييجي.

ـ حاضر يا ستي.

وفي صالة المنزل أجرى شكري اتصاله بـعيد مؤكدًا عليه الحضور للاحتفال بخطبة حمزة النمر، ثم أخرج طاقم الصيني من الدولاب وبدأ في رصه على السفرة وهو يدندن لحنًا غربيًا قديمًا.ومع دقات الساعة الرابعة استقبل المنزل ضيوفه الثلاثة، وأمام مداعبات شكري وحمزة لبعضيهما خرجت الضحكات صافية من قلوب عيد ونورسين ونيفين

خطيبة حمزة التي طلب منهم مناداتها باسم نوفي.

جلس أيمن بجوار عمه ليحصي الحلوى التي أحضرها له معه، وأخذ عيد يقبل في ابن أخيه، التفت شكري إليه وقال موجهًا الحديث:

ـ حتبوّظ الواد يا عيد.

ـ مالكش دعوة أنت، عمه وبيدلعه.

ـ طيب كفاية طبطبة وبوس.

ـ ياشكري مالكش دعوة.

اختفت الابتسامة من على وجه شكري وقال بحزم:

ـ ادخل جوه يا أيمن.

أسرع الصبي صاحب السنوات الاثني عشر بمغادرة الضيوف في خوف بينما تكهرب الجو وساد الصمت للحظات قبل أن يرد عيد الذي اكتست ملامحه بالغضب هو الآخر:

ـ أنت بتعمل كده ليه يا شكري، حضرة بهاء الله بيقول (التّربية نوعان: نوع يحيط الجميع ويربّي الكلّ ويرزقه ولذلك دعا الله نفسه ربّ العالمين، وأمّا النّوع الآخر خُصِّص لأناس اعتنقوا هذا الظّهور الأعظم مستظلّين بظلّ هذا الاسم، والخارجون عن هذا المقام محرومون وممنوعون من المائدة الإلهيّة الّتي نزلت من سماء فضل هذا الاسم الأعظم فشتّان ما بين أولئك وهؤلاء).

صرخ شكري مقاطعًا عيد:

ـ خلاص يا عيد مش وقته.

امتعض وجه نيفين بينما ارتفع صوت حمزة الذي أراد تخفيف حدة

الموقف قائلاً:

ـ والله أنتو ما ليكوا في العزومات، أنتو آخركم مستشفى الحميات.

نهضت نورسين متجهة إلى المطبخ وهي تقول:

ـ ثواني يكون الغدا مفروش ع السفرة، تعالى يا شكري ساعدني.

تبعها شكري إلى المطبخ مفضلاً إنهاء الحوار، بينما نظر عيد إلى أرضية الغرفة حزينًا، ومالت نيفين على أذن خطيبها وأسرت له ببعض الكلمات، خانته نظرة إلى عيد ليتأكد أنه لا يراه، ثم مال على أذنها وتحدث، ثم نهض محاولاً مساعدة صديقه الذي كان يحمل صينية كبيرة.

وعلى المائدة بعدما جلس الجميع، أصر شكري على تقبيل رأس عيد، وأجلس أيمن بجواره حتى يعاود الابتسام، وبعد أن انهمك الجميع في توزيع الأكل وتناول بعض السلطات، لاحظت نورسين عدم اقتراب نيفين من الطعام، وأنها جلست صامتة تلعب بالملعقة على مفرش المنضدة، فقالت:

ـ إيه يانيفين مبتاكليش ليه ياحبيبتي؟

التفت الجميع إلى نيفين بينما يواصلون الأكل بشهية مفتوحة:

ـ الحقيقة يامدام نور مش قادرة أصلي متغدية في البيت.

توقف شكري عن الطعام، ازدرد بعض الأرز الذي كان في فمه بصعوبة، ونظر إلى حمزة وهو يوجه كلامه إلى نيفين:

ـ ازاي الكلام ده، احنا متفقين على العزومة بقالنا اسبوع.

واصل حمزة التهام طعامه بشهية عالية دون أن يلتفت إلى نيفين وهو يقول:

ـ غدا إيه يا نوفي، احنا مع بعض من الصبح وكنا بنزور قبر أبويا، اتغديتي امتى؟

ردت نيفين بغضب: مش عايز آكل يا حمزة!

توقفت يد حمزة التي تحمل المعلّقة قبل أن تصل إلى فمه، والتفت إلى خطيبته التي جلست على يمينه بغضب وهو يقول: كلي يا نيفين.

نهضت نيفين وقالت في حسم: أنا مش عايزة آكل وعايزة أروَّح، تعبانة.

نظر عيد إلى نيفين نظرة طويلة ثم التفت إلى ابن أخيه الذي توقف هو الآخر عن تناول الطعام وقال له هامسًا:

ـ كمِّل أكلك يا أيمن مالناش دعوة.

نهض حمزة معتذرًا للجميع على ذلك الموقف المحرج، وأمسك بيد نيفين وجذبها خلفه في اتجاه باب الشقة قائلاً:

ـ محدش يقوم من على الأكل، دقيقتين وراجع.

نبتت دمعتان على وجه نورسين، بينما احتضنها شكري بقوة مداعبًا وهو يقول مشيرًا إلى عيد الذي ظل يتناول طعامه بهدوء:

ـ شايفة عيد بياكل ازاي، حاجة تفتح النفس صحيح.

وقبل أن ترد نورسين كان حمزة قد عاد وحيدًا ليحتل مكانه على منضدة الطعام، ليواصل الأكل بنفس الشهية قائلاً دون أن ينظر إلى العيون المتسائلة حوله:

ـ بنت الوسخة مش عايزة تاكل عند أعز اصحابي علشان بهائيين، خَدتْ دِبلتها وروّحت.

***

(القاهرة ٢٠١٣)

وقفت نورسين أمام اللوحة المقلدة للوحة «عباد الشمس» الشهيرة لفان جوخ والمعلّقة في صالون شقتها، تأملتها جيدًا ثم بدأت في تنظيفها بالريشة لإزالة التراب العالق بها، ودون أن تلتفت إلى أيمن الذي فتح باب الشقة واحتضنها بقوة من الخلف قالت:

ـ حمدلله على سلامتك ياحبيب ماما يا صايع، كنت فين بقالك يومين.

ابتسم أيمن وهو يقول:

ـ بقابل بابا يا أمي.

ارتجف جسد الأم رغمًا عنها للحظة قبل أن تستدير وهي تتساءل في ذهول:

ـ نعم؟!

قهقه أيمن مجيبًا:

ـ مش أنا قابلته في حواديتك، كنت بقابله في حواديت عم حمزة.

ابتسمت نورين واستدرات مرة أخرى لمواصلة تنظيف اللوحة، بينما جلس أيمن على مقعد قريب منها وهو يتأمل اللوحة وكأنه يراها للمرة الأولى ثم قال:

ـ اشمعنى عباد الشمس يعني يا ماما؟

ـ أبوك كان دايما يقول اللي زينا عاملين زي عباد الشمس بالظبط، ربنا خلقه كده، زهرة زي كل الزهور، الفرق ما بينه وبينهم إنه بيتبع الشمس من الشروق للغروب، بس اختلافه ده خللى البعض يكرهه، وناس تانية تكفره، وتعتبر حتى اسمه بس حرام، مع إنه زهرة وربنا خلقها كده.

اتسعت ابتسامة أيمن وقال:

ـ طيب يا زهرة عباد الشمس الفارسية الجميلة مش ناوية تأكلي ابنك اللي حيموت من الجوع؟

استدارت نورسين بعد أن أنهت مهمتها وقالت في دلال:

ـ أنا حدخل ألبس وأعزمك على الأكل بره يا غلباوي.

قفز أيمن من على مقعده صارخًا في سعادة:

ـ تعيش ماما تا تا تعيش

وخلال دقائق كانت الأم وولدها في السيارة تعبر بهم حي الزيتون ومصر الجديدة في اتجاهها إلى وسط المدينة في مطعم «فلفلة» في شارع هدى شعرواي.

وعلى منضدة احتلت الجانب العلوي الأيمن للمطعم، أسفل أحد أحواض السمك الذي حوى سلحفاة بحرية جلس الثنائي ليلتقطا أنفاسهما من زحام القاهرة القاتل، لكن أيمن قطع ضجيج اللهاث قائلاً:

ـ اشمعنى فلفلة ياماما، وعرفتيه منين يا شقية؟

ابتسمت نورسين بينما تنقلت عيناها بين أرجاء المطعم في سعادة وشوق:

ـ أبوك الله يرحمه كان دايما يعزمني هنا.

وبمجرد أن أنهيا طلب الطعام من النادل ظل أيمن يسأل والدته بعض الاسئلة عن والده دون توقف لدرجة أنها طلبت منه التوقف لتناول الطعام قبل أن يبرد، وبمجرد أن أنهت طعامها قالت في حزم:

ـ أنا بقى عندي سؤال مهم، أنت ليه عمرك ما سألت أبوك شخصيًا

هو ليه بيعمل معاك كده، وازاي قلبك طاوعك تبعد عشر سنين بحالهم يا أبو من غير قلب أنت؟

***

(القاهرة ١٩٨٩)

ارتفعت الضحكات لترج جدران قاعة سينما «كايرو بالاس» في وسط المدينة أمام الشاشة التي تعرض فيلم «سيداتي آنساتي» بينما كان محمود عبدالعزيز يحاول الاختيار بين زوجاته الأربعة في ليلة الدخلة.

ضحكت نورسين حتى اغرورقت عيناها من الدموع، بينما أخذ شكري يداعبها هامسًا في أذنها، وبمجرد انتهاء العرض غادرا دار السينما في شارع ٢٦ يوليو متجهين إلى شارع هدى شعراوي سيرًا على الأقدام، تناقشا في أحداث الفيلم، وردد شكري إفيهاته مقلدًا محمود عبدالعزيز، قبل أن يتوقف على رصيف شارع شريف ليقلد بطل الفيلم حين أتت ليلة زوجته الرابعة التي قامت بدورها الفنانة عائشة الكيلاني باسم كريمة، والتي أطلق عليها البطل اسم «جريمة»، ارتفعت ضحكات نورسين لدرجة أن بعض المارة توقفوا لمشاهدة زوجها باسمين.

أدركت نورسين هذا سريعا فاكتسى وجهها ببعض الحمرة على أثر الخجل فسحبت زوجها من يده ليواصلا السير قائلة:

ـ يلا يا شكري الناس بتتفرج علينا.

ابتسم شكري واستسلمت يده في أحضان يد زوجته وسارا بجد مخترقين «قهوة البورصة» للوصول إلى شارع هدى شعرواي حيث يقَع «فلفلة» مطعمهما المفضل.

وعلى تلك المنضدة التي احتلت الجانب العلوي الأيمن للمطعم جلسا ليطلبا عشائهما الأسبوعي، كما اعتادا كل يوم خميس، بعدما يتركان أيمن لدى أحد جيرانهما وزوجته لم ينجبا أطفالاً بعد، كان النادل يعرف طلباتهما لدرجة أنه رحب بهما فقط دون أن يسألهما عما يريدان، وبمجرد أن انسحب، اقتربت نورسين من زوجها واحتضنت يده بقوة وهي تنظر في عينيه وتقول:

ـ أيمن يا شكري

ظهر عدم الفهم على وجه شكري، فأكملت نورسين:

ـ أنت بتبقى حد تاني وأنت بتتعامل مع أيمن.

اختفت تلك الابتسامة التي صاحبت وجه شكري منذ بداية عرض الفيلم وحتى وصولهما إلى المطعم، وحل مكانها وجه صارم بلا أي تعبير، تأمل الجالسين في المطعم وكأنه يبحث عن شيء بعينه، هزت نورسين يده لتعيد بصره إليها، فأجاب دون أن ينظر إلى عينيها: أنت عندك شك إني بحب ابني يا نور.

ـ لا ياحبيبي، أنا متكلمتش عن حب وكره، أنا باتكلم عن قسوتك معاه.

ـ الراجل اللي بيتربي بطراوة بيطلع طول عمره طري، ميعرفش يقف على رجليه أبدًا لوحده.

* * *

(القاهرة ١٩٦٣)

عيد أبو عيّاد طفلاً يبكي في «حوش» مدرسته في الفسحة، يجري شكري مسرعا إليه، يجذبه بشدة متسائلاً: حصل إيه ياعيد؟

- الواد حمدي محمد ضربني.
- ومضربتوش ليه ياعيد؟

ارتفع بكاء عيد مرة أخرى متجاهلاً الإجابة على شقيقه الأكبر، الذي أسرع يبحث في حوش المدرسة عن حمدي محمد، والذي أخبره البعض أنه غادر المدرسة قفزًا من على السور.

عاد إلى أخيه مرة أخرى ولكن بعد المرور على "الكانتين" اشترى ببعض مدخراته زجاجة مياه غازية ودفع بها إلى أخيه مبتسمًا:

- اشرب ياعيد ومتعيطش، وبكرة حنضربه سوا.

تناول عيد الزجاجة بلهفة وتوقف عن البكاء:

- لا اضربه أنت لوحدك يا شكري.

قطع حديثهما جرس انتهاء الفسحة فعاد كلاً منهما إلى فصله، وبمجرد انتهاء اليوم الدراسي، التقيا مرة أخرى في رحلة عودتهما إلى المنزل، تأمل شكري أبو عيّاد تلك الكدمة الواضحة في وجه أخيه والتي بدأ لونها يتحول إلى اللون الأزرق، وتسائل عن رد فعل والده الغاضب.

وداخل المنزل أعد شكري غداءًا سريعًا لأخاه الأصغر، وهبط درج المنزل إلى محل بيع المرطبات والحلويات في نفس المبنى، طلب من صاحب المحل قطعتي ثلج وعاد بهما مرة أخرى محاولا اجراء كمادات لعين عيد وتلك الكدمة الزرقاء.

ومع انسياب قطعتي الثلج مع الوقت وتحولهما إلى بقعة ماء كبيرة احتلت صدر عيد وبللت ملابسه، وصل الاب حسب موعده المعتاد مع غروب الشمس.

وبمجرد رؤيته لعين ولده الأصغر الطالب في الصف الأول الإعدادي

أصابه الفزع، ألقى رزمة ورق كان يحملها على المنضدة وانحنى راكعًا أمام ولده الذي جلس على مقعد مواجه، وسأله في فزع:

ـ مالك ياعيد، إيه اللي عمل فيك كده؟

عاود عيد البكاء مرة أخرى وقال منتحبًا:

ـ الواد حمدي يابابا ضربني بالبوكس في عيني.

ـ ليه ياحبيبي؟

ـ علشان مرضيتش أغشّشه في امتحان الجبر بتاع الشهر.

ـ وشكري كان فين؟

ـ كان في فصله يابابا.

تحسَّس الأب صدر ولده المبتل، ثم أسرع إلى كومة غسيل باتت على أحد مقاعد صالة المنزل منذ الأمس، التقط منها بعض الملابس وعاد مرة أخرى لتغيير تلك الملابس المبْتَلة وهو يتساءل:

ـ وإيه اللي بلَّك كده يا حبيبي؟

ـ ده شكري كان بيعملِّي كمادات.

وبمجرد انتهاء الوالد من مهمته التفت إلى شكري الطالب في الصف الثالث الإعدادي والذي جلس صامتا تمامًا طوال الحوار الدائر بين والده وأخاه الأصغر، ثم أشار إليه لدخول غرفته وتبعه مسرعًا:

ـ أخوك اتضرب ازاي يابني آدم وأنت موجود في المدرسة؟

ـ يابابا أخويا اتضرب في فصله وأنا كنت في فصلي.

اكتست ملامح الأب بالغضب :

ـ أنا مخلّفتش راجل يا شكري.

ـ آه يابابا عيد مش راجل علشان اتضرب ومضربش اللي ضربه.

أصابت العبارة الأخيرة الوالد بالجنون، سحب مفتاحا انجليزيًا وجده بجوار يده وانهال به على كتف شكري وهو يصرخ قائلاً:

ـ لا انت اللي مش راجل يا شكري، لو راجل كنت عرفت تحمي أخوك.

حاول الفتى المراهق الهرب من أمام والده وتفادي الضربات، فلم يجد مهربًا سوى شرفة الغرفة وأغلق بابها الخشبي خلفه مثبتًا إياه برجليه سندا ظهره إلى حائط الشرفة حتى لا يتمكن والده من اقتحامها وهو يصرخ باكيًا: حرام عليك يابابا والله حرام عليك.

حاول الأب دفع «الشيش» الخشبي بكتفه لكنه فشل فقال متوعدًا:

ـ حسابنا مخلصش يا شكري.

وبعد دقائق قضاها شكري في محاولة التوقف عن البكاء، أتاه صوت عيد ضاحكًا في الشارع بصوت عال، انتفض قائمًا فوجد والده يحتضن أخاه الأصغر بعد أن ارتديا ملابس الخروج في طريقهما لمكان ما.

***

(القاهرة ١٩٨٩)

أنهى شكري أبو عيّاد عشاءه ونادى على نادل المطعم طالبًا زجاجتي مياه غازية له ولزوجته التي تناولت عشاءها أبطأ من كل مرة، أدركت للمرة الأولى ذلك الفارق بين زوجها وأخيه، وقُدرة شكري غير المحدودة على تحمل مسؤولية الجميع على العكس تمامًا من أخيه، صمتت قليلاً ثم قالت: بس برضو ده مش مبرر لعنفك المبالغ فيه مع الولد ياشكري.

ـ عنفي المبالغ فيه، أبويا يوم حدوتة الكدمة دي راح الملاهي مع عيد، وحرمني من الأكل ٣ أيام بعدها، لولا سندوتشات زمايلي في المدرسة كنت مت من الجوع.

ـ يعني أنت كده حتَّطلعوا راجل يا شكري؟

ـ آه حيطلع راجل غصب عنه وعني، الأيام دي حتى مش زي أيامي، لو مبقاش راجل قوي وجامد قوي حيتاكل، أنتي قاعدة في البيت مش شايفة اللي أنا بشوفه.

تنهدت نورسين بصوت مسموع، قبل أن تقترب بجسدها من زوجها الجالس بجوارها وكأنها تحاول الاحتماء به ثم قالت:

ـ طيب وحياتي عندك يا شكري بالراحة عليه، صاحبه لما يكبر طيب.

التقط شكري زجاجة المياه الغازية قبل أن يضعها النادل على المنضدة وتجرعها مرة واحدة، ثم تجشأ بصوت منخفض وأجاب:

ـ حاضر يانور، لما يكبر.

***

(القاهرة ٢٠٠٠)

دق شكري أبو عيّاد جرس منزل جاره الذي يقطن في المنزل المواجه لمنزله في نفس الشارع، فتحت الباب ابنته الكبرى، نظر في الأرض وقال في خجل:

ـ عايز باباكي لو سمحتي.

أسرعت الشابة لتخبر أباه بزيارة جارهم، فنادى الأب من الداخل:

ـ اتفضل يا أستاذ شكري.

لم يخطو شكري إلى داخل الشقة حتى استقبله صاحبها مسلمًا ومشيرًا إلى صالون المنزل حيث جلسا، ثم سأله:

ـ تشرب إيه يا أستاذ شكري؟

غادرت عينا شكري أبوعيّاد الأرض للمرة الأولى منذ وصوله إلى شقة جاره، واندفع متحدثًا محاولاً الكلام بأقصى طاقة لديه:

ـ شكرًا مش عايز أشرب، أنا جاي لحضرتك علشان أقولك إن بنتك الوسطانية مصاحبة الكلب ابني، وأنا ظبطتهم النهاردة الصبح خارجين من سينما روكسي سوا، ولما روحت البيت طلَّعت دول من مكتب مذاكرته.

ثم رفع مجموعة أوراق كانت بيده ودفع بها إلى جاره الذي تأملها في دهشة، فأكمل شكري:

ـ جوابات غرامية حتلاقي ردودها أكيد عند بنتك جوه، أنا جاي أعتذر وأتأسف وأتمنى تقبل أسفي.

ثم قفز في الفاصل بين مقعده ومقعد جاره ليقبل رأسه، انزعج الرجل بشدة من التصرف وابتعد بظهره وهو يقول:

ـ اتفضل اقعد يا أستاذ شكري ميصحش.

ونادى بصوتٍ عال على ابنته:

ـ يانورا.

أسرعت الفتاة إلى والدها، تأملها شكري بغضب، سرت الرجفة في جسدها بعدما أدركت من هو الضيف، وقبل أن يتكلم والدها، قفز شكري أبو عيّاد دافعًا البنت من طريقه ليغادر المنزل.

بينما في نفس اللحظة جلست نورسين داخل غرفة أيمن تحاول تهدئته بعدما كسر مرآة غرفته عندما شاهد ما فعله والده بشعره، وهو يصرخ:

ـ حلقلي زي العيال اللي بيتمسكوا في القسم ياماما.

حاولت الأم تهدئة ولدها بكل طريقة متحاشية النظر إلى ذلك الصليب الأقرع في رأسه، والذي صنعه زوجها بعدما قيد الشاب إلى مقعده، وهو يصرخ:

ـ علشان تبقى تجيبلنا مصايب ياحبيب وتصاحب بنات الناس، عايزهم يولعوا فينا، ابقى وريني حتخرج من أوضتك ازاي.

ثم أمسك بالخطابات الغرامية التي وجدها في مكتب أيمن وقال مخاطبًا نورسين وهو يغادر الشقة:

ـ حسك عينِك أعرف إنك اديتي الأفندي جنيه واحد.

***

القاهرة ٢٠٠٠

يمسح شكري دمعة فرت من عينيه وهو يرتدي بنطاله في الحمام، يتأكد من مظهره جيدًا في المرآة، تنكسر عينيه سريعًا وكأنه لا يريد أن يرى وجهه، يتسلل بهدوء حتى لا تشعر به صاحبة المنزل.

يضل الطريق إلى الباب، يمنعه الظلام والرغبة في عدم الإزعاج من التصرف سريعًا، يحاول بدأب العثور على صالة الشقة التي يدخلها للمرة الأولى.

يمر رغمًا عنه من أمام باب غرفة النوم، تتأوه المرأة في الداخل وهي تتقلب على فراشها، يلقي نظرة خاطفة ويهز رأسه في أسى، تمر في خياله

ذكرى لقاءهما للمرة الأولى قبل ساعات في أحد الأفراح، والتي انتهت في فراشها بعد زجاجة كاملة من الويسكي المصري.

ينظر في ساعته التي أنارت أرقامها الفسفورية يجدها قد تجاوزت الرابعة، يقتحم أذان الفجر الصمت المحيط به، ينتهز الفرصة ويتحرك سريعًا، يصطدم بمقعد ويقع، لكنه ينهض سريعًا وينقض على الباب الذي رآه فجأة.

يغادر الشقة مهرولاً على سلالم العمارة، يفتح الباب الحديدي بهدوء يفاجئه وجود أيمن الذي خط شنبه مستندًا إلى سيارة مركونة في الشارع.

يبتسم أيمن في سخرية، يقترب شكري منه بهدوء محاولاً لمس كتفه، يجري الشاب الصغير ويعجز والده على اللحاق به.

يخشى شكري أن يعود للمنزل مباشرة، يغير وجهته إلى الاستوديو والأفكار تدور في رأسه دون توقف.

وفي الصباح يأتيه الهاتف الذي ينتظره منذ وصل إلى محل عمله، يسمع صوت نورسين باكيًا على الطرف الآخر، يسقط قلبه في قدميه، يتحسس كلماته فترفض الخروج، يسمعها فقط وهي تقول:

ـ أيمن ساب البيت يا شكري، حلف ماهو راجع تاني.

يزدرد ريقه ويقول:

ـ ليه؟

تصمت نورسين فجأة، يصمت هو أيضا، ترتجف يده بسماعة الهاتف..

تقول نورسين:

ـ مش مهم ليه، المهم إنه المرة دي مش راجع.

يغمض شكري عينيه في أسف ويعجز عن الرد، تواصل نورسين كلامه:

ـ حاول تعرف مكانه وتراضيه، حاول تصالحه، أنا مسامحاك.

يسمع صوت إغلاق السماعة وينهار في البكاء.

***

(القاهرة ٢٠١٣)

حاول أيمن إثناء والدته عن دفع حساب العشاء، لكنها أصرت على موقفها، وغادرا سويًا المطعم وهي تقول:

ـ حتوديني سينما إيه بقى يا أستاذ؟

نظر أيمن في ساعته، وقال:

الساعة دلوقتي ٩، الفيلم بيبدأ ١٠ بالظبط، يلا بينا على سينما «نايل سيتي» فورًا

وخلال دقائق كانا في طريقهما إلى السينما لمشاهدة أحد الافلام المعروضة، لم يتحدثا خلال الطريق فقط استرجعت الأم إجابة ولدها على السؤال:

ـ نجيب سرور ليه قصيدة بتقول «ونحن العيال.. لنا عادة.. نقول اذا أعجزتنا الأمور؛ أبى يستطيع!»، وأنا طول الوقت كنت عارف إنه يستطيع، يقدر يبقى حنين قوي معايا، لاني كنت بشوف حنيته معاكي، مع أصحابه، مع العيال في الشارع وفي الأفراح اللي نزلتها معاه، مع حتى البياعين السريحة اللي كانوا بييجوا الاستوديو واللي كان بيشتري منهم ساعات حاجات مش محتاجها علشان ميكسرش بخاطرهم

لكن حاجتين مقدرتش أستحملهم أبدًا يا أمي في كل اللي حصل بينا، إنه كان مصر يخنقني ويقفل الدنيا كلها حواليا، لا أحب زي كل الشباب ولا أصاحب حد غير الكاميرا، اللي كرهتها علشان السبب ده، ويوم ما شفته بيخونك، ساعتها خفت حتى الحنية اللي بيصدرها للناس تكون كذبة، ساعتها حسب ما فهمت إني الوحيد اللي بيعامله بشخصيته الحقيقة، ساعتها كان لازم أهرب.

وعندما سألته نورسين عن نفسها، وكيف قاطعها وهي أمه أجاب:

ـ من عشر سنين مقبلتش قبولك لخيانته، زعلت منك، بعد لما هديت شوية كنت شايفك حتة منه، كرهت حتى تفاصيل زي إنك كنت بتديني فلوس من وراه، إنك بوستي ايديه علشان يحلق شعري كله على الزيرو بعد الصلبية، محبتش ضعفك، كنت صغير وحمار، وبعد كده اتعودت على البعد والدنيا خطفتني.

صرخ أيمن بصوت عال: ماما أنا ركنت العربية بقالي شوية رحتي فين.

هزَّت نورسين رأسها في خجل وابتسمت وهي تتأمل موقف السيارات داخل المبنى التجاري الذي يضم دار السينما وقالت:

ـ معلهش يا ابني سرحت شوية.

وأمام شاشة العرض تعلّقت نورسين بيد ولدها وأراحت رأسها على كتفه، وعلى فمها ابتسامة هادئة واثقة.

لم تشاهد الفيلم المعروض، كان شكري أبو عيّاد بنفس الزي الذي ارتداه يوم التقاها به في المطار، وشعره اللامع المصفف بعناية بالغة يحتل الشاشة كلها، جالسا على ركبة ونصف ينظر في عينيها ويغني في سعادة:

”على قد ما حبينا وتعبنا في لياليناالفرحة في مشوارنا تاني هتنادينا
على قد ما حبينا وتعبنا في لياليناالفرحة في مشوارنا تاني هتنادينا
طول ما القلب صافي بحر العشق وافى
وكل عذاب الدنيا هيروق بكرة لينا
بس امتى لياليناعالحلم ترسينا
بين أيوة ولا.. الحب بنلقاه
ما أحلى الحياة بأصحابنا وأهالينا
وعذاب لما ما نكون وحدينا
لو نروق هيجينا كل ما اتمنينا

على قد ما حبينا وتعبنا في لياليناالفرحة في مشوارنا تاني هتنادينا
لو ممكن تطيّب أحزان الحبيب
شمس الحب تطلع من بعد المغيب
بس امتى أمانينا تيجي وتدفينا
ليه مانكنشي ذكرى في الليله الجميلة
ليه مانكنشي غنوة في الرحله الطويل
ماحنا ياما شقينا من يوم ما اتنسينا

لو نروق هيجينا كل ما اتمنينا
على قد ما حبينا وتعبنا في لياليا
الفرحة في مشوارنا تاني هتنادينا
على قد ما حبينا وتعبنا في لياليا
الفرحة في مشوارنا تاني هتنادينا"

كان بليغ حمدي في أقصى الشاشة يلعب على جيتاره لحن الأغنية وعلى وجهه ابتسامة عريضة، سعيدًا، وبمجرد انتهاء شكري من الغناء احتضنا بعضهما بشدة، ثم أشار لها بليغ محييًا قبل أن ينصرف، والتفت لها شكري وهو يقول مبتسمًا وقد تغيرت ملابسه وبدأت بعض التجاعيد تغزو وجهه:

ـ حتوحشيني يانورسين، خدي بالك من نفسك، حتى وانا بعيد بحبك كل يوم أكتر، بس كل ما الواد الندل ده بيسامحني أنا بامشي، وخلاص قربت أرتاح.

صفَّر شكري لحنًا غربيًا قديم صار علامة على شعوره بالسعادة منذ ارتبطا قبل عقود، فأدركت نورسين أنه سعيد، بدأ الشيب يغزو شعره، وزادت تجاعيده حتى ظهرت على الشاشة وكأن كُلاً منهما يروي تفصيلة ما في عمره، تغيرت ملابسه وصار يرتدي ملابسه الأخيرة التي رحل وهو يرتديها، لكنه لم يتوقف عن ترديد اللحن، ثم قال:

ـ أول مرة تشوفيني من غير كاميرا صح، شعور صعب قوي إني أعيش بعينين اتنين بس هنا، هههههه، حلوة أعيش دي، مش حتفهميها دلوقتي ربنا يديلك طولة العمر، بس في حاجات بتعوضني عن الكاميرا، كفاية إني قابلت رامبرانت، تخيلي الرسام الهولندي العظيم ده، إمام

المصوّرين بقى صاحبي، وبينادِيني يا شكري كده عادي، كل حاجة هنا حلوة زيك بالظبط، ومكنش ناقصني غير إن الجدع ده.

ثم أشار إلى أيمن الجالس بجوارها والغارق بين أحدث الفيلم الذي يشاهده:

ـ يصالحني ويسامحني، وأطمن عليكي، بوسيهولي دلوقتي حالاً يانور، علشان من غبائي ملحقتش أبوسه وأنا قادر، آه لو نعرف كمية الحاجات البسيطة اللي بتبقى بين ايدينا وبنضيعها باستخفاف وغباوة.

قبلت نورسين أيمن على خده، فالتفت لها مندهشًا، ابتسمت له، فابتسم دون أن يستوعب، ثم عاد سريعا ليغرق في أحداث الفيلم.

تأملته لحظات وكأنها تراه للمرة الأولى، ابتسمت مرة أخرى لذلك الشبه الواضح بينه وبين والده الراحل، صرخ فيها شكري على الشاشة:

ـ أيوة شبهي، لسه واخدة بالك ولَّا إيه، صحيح أنا أحلى وأشيك بس الواد حتة مني، بس غالبًا هو أجدع وبيفهم أكتر، خدوا بالكم من بعض يانور.

ثم صمت شكري قليلاً وأعطاها ظهره وعاد مرة أخرى لينظر إليها بعينين محمرتين وكأنه كان يبكي، ثم قال:

ـ أنا عارف إنك بتحبي ليلى مراد قوي، حغنيلك معاها آخر أغنية قبل ما أمشي، بحبك قوي يانورسين.

وخلال ثوانٍ قليلة امتلأت الشاشة بتلك الزهور البيضاء التي عشقتها وأطلَّت ليلى مراد بملامحها المميزة، ألقت التحية على نورسين الغارقة في الدهشة، ثم حيت شكري أبو عيّاد الذي انحنى لها نصف انحناءة، وبدأت الغناء وشكري يردد معها:

"يا حبيب الروح فين أيامك وحشتني ووحشني خصامك
يا حبيب الروح فين أيامك
أيامك الحلوة اللي فاتتني يا ريت كان عمري اقصر منها
لكن الايام جت سبقتنى وانا اللي صبحت بعيد عنها
لا أنا طايلة عطفك وحنانك ولا طايلة حتى حرمانك
يا حبيب الروح فين أيامك"

ومع نهاية الكوبليه الأول ظهر محمد عبدالوهاب في أقصى يمين الشاشة وهو يعزف على البيانو ويغني معهما بعد أن ألقى تحية على نورسين بهزة خفيفة بالرأس:

"يا حارمني من عز هناي شوف حالى باين في عيني
ان كنت قريب ابكي معاي وان كنت بعيد ابكي علي
انده لي حتى في منامك تلاقيني عروسة احلامك
يا حبيب الروح فين أيامك"

وبنهاية الكوبليه الثاني كان فريد الأطرش ومحمد القصبجي يحملان عوديهما خلف شكري وليلى مراد يعزفان سويًا لحن الأغنية، رفع الاطرش يده ليحيي نورسين، بينما انحنى القصبجي نصف انحناءة

"انت اللي قدرت تفرحني وانت اللى عرفت تبكيني
دلوقتي لا فرح بيسعدني ولا دمعة بتريح عيني
ما يفرحنيش غير أيامك ولا يسعدنيش الا كلامك
يا حبيب الروح فين أيامك"

وبنهاية الأغنية أخذت نورسين تحاول تحية كل " الكورس" الواقف

على أقصى يسار الشاشة والمكون من محمد فوزي وعبدالحليم حافظ وسعاد حسني وأسمهان ومحمد قنديل، ودون أن تشعر بنفسها وقفت لتصفق بكل ما أوتيت من قوة لتحية الجمع على الشاشة.

التفت الجميع إليها، اختفت شاشتها الخاصة، وظهرت على الشاشة الفنانة كنده علوش في مشهد ضمن أحداث الفيلم الذي يشاهدانه، ارتفعت ضحكة ساخرة من أقصى القاعة، بينما تراقصت عدة ضحكات مرتفعة، جذبها أيمن من يدها لتجلس، وهو يقول:

ـ هو حضرتك بتشوفي فيلم غير اللي احنا بنشوفه؟

***

أعاد أيمن البحث مرة أخرى في ارجاء شقته في وسط البلد قبل تسليمها إلى المالك، لم يجد صورًا جديدة، أزعجه ذلك للغاية قبل أن يبتسم مخاطبًا نفسه:

ـ والله وبقيت بتزعل لما متلاقيش صور يا أيمون.

غادر الشقة حاملاً حقيبته الأخيرة، وضعها في السيارة بجوار الحقائب التي سبقتها، ألقى نظرة إلى الشارع وكأنه يودّعه، أمسك هاتفه المحمول، كتب رسالة قصيرة إلى «جين» قال فيها:

ـ آسف ياجين، أرجو إنك تقبلي اعتذاري عن كل سخافاتي، الواحد ساعات مبيشوفش الصورة غير من زاويته هو، وعلشان كده بيشوفها دايما غلط.

أدار سيارته وانطلق في اتجاه مكتب مهندس التصميمات الخاصة بالإنترنت في شارع أبو داوود الظاهري بمدينة نصر، أشار إلى «السايس»

وهو يركن سيارته: خد بالك م العربية لحسن تتسرق، فيها شنط هدومي كلها، حاعيش عريان.

وأمام شاشة كومبيوتر المهندس جلس يشاهد تصميم موقع شكري أبو عيّاد، تأمل جيدًا قسم الصور الشخصية والذي كان تحت عنوان «اضحك الصورة تطلع حلوة»، ثم انتقل إلى قسم الصور العامة، وبعدها إلى قسم صور المسرح، قبل أن يعود مرة أخرى إلى السيرة الذاتية لوالده، ويشير إليها مخاطبًا المهندس:معلش يا شمس في إضافة صغيرة بس، حتكتب ضمن السيرة الذاتية بتاعة الوالد إنه «بهائي» الديانة.

تلعثم المهندس الشاب ونطق ببعض الكلمات غير المفهومة وأنهى التعديل المطلوب بعد أن امتقع وجهه، فتابع أيمن: الموقع حيبقى أون لاين امتى؟

أجاب المهندس: على ما توصل البيت يكون ظهر بالنسخة البيتا التجريبية.

شكره أيمن وأعطاه مظروفًا يضم الدفعة الأخيرة من الحساب، ثم غادره في الطريق إلى منزله.

وعلى منضدة السُفرة جلس بجوار عمه عيد أبو عيّاد، والدكتور حمزة النمر المدعوان على الغداء، ووالدته يشاهدون جميعًا الموقع الإلكتروني الذي أطلقه أيمن لاستعراض صور والده وتخليده.

كانت كل صورة تحظى بتعليق ما، عن ذكرى ما، كانت يومًا ما حدثًا عاديًا قبل أن تلتقطها الكاميرا، وفي خلفية الصفحة الرئيسية للموقع الإلكتروني بقيت لوحة زهرة عباد الشمس كخلفية ثابتة تُشير إلى صاحب هذا الموقع.